أَثَرُ القُرآنِ الكَرِيمِ في التَّحوُّلِ الدَّلالِيِّ وَتَوْلِيدِ المفاهيمِ المعْنَوِيةِ الجديدة

أ.م.د. احمد علي نعمة الزبيدي
الجامعة العراقية كلية الاداب
(قسم علوم القرآن)

ملخص البحث

تعرَّض البحث لدراسة واحدةٍ من أهم الظواهر الفنية الجليلة في القرآن الكريم، والتي يتوقف فهم كثير من آياته على تحديد منهجها والوقوف على آلياتها والإلمام بحيثياتها، لما لها من أثر لايتوارى في تفسير آي الذكر الحكيم تفسيراً لغوياً وبلاغياً من شأنه بلوغ مرامي طائفة من نصوصه المباركة ومعرفة مقاصدها القريبة والبعيدة؛ فسلط الضوء ساطعاً على كيفية توظيف تلك النصوص لتلك الظاهرة السخية لبلوغ أرجاعها الدلالية الفسيحة؛ تلك هي: ظاهرة التحول الدلالي في القرآن الكريم وبيان أثره في توليد المفاهيم المعنوية الجديدة وإعادة نسلها وإنتاجها وصياغتها صياغة فريدة فيها من مقومات الجمال والسمو والإيجاز والإعجاز ما يليق بمقام هذا الكتاب العلي؛ فتناول ظاهرة الحياة والنمو والتطور في اللغات، وتعرض للحديث عن ظاهرة التطور والتحول الدلالي في اللغة العربية والقرآن الكريم، واستعراض أنواعها بشيء من التفصيل والتمثيل، وعرج على ظاهرة المجاز والظواهر التابعة لها مبيناً أثرها في توليد المفاهيم القرآنية الجديدة وضرب أخيراً طائفة من الأمثلة والشواهد المنتقاة بدقة وعناية لتلك الظاهرة المعطاء في آي الذكر الحكيم، لتأتي الخاتمة مكللة بأهم النتائج.

مقدمة

إن القرآن الكريم كنز يستفتحه ويُنقِّب عنه أهلُ كلِّ عصر بأدواتهم؛ ليغترفوا من معينه ما تسنَّى لهم، وهو كريمٌ، كلَّما استُثير؛ أعطى، وكلَّما سُئل؛ وهب، وفي ذلك يقول ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: ((من أراد العلم؛ فليُثوِّر القرآن[1]؛ فإن فيه علمَ الأولين والآخرين))[2]!

ومن وُجُوه إعجازه: أن يظلَّ مشغلة العلماء والدارسين جيلاً بعد جيل، ثم يبقى أبداً رَحْب الآفاق والمدى، سخيَّ المورد والمأتى؛ فما انفكَّ العلماء يُشمِّرون عن سواعد الجد والاجتهاد بتنميق العبارت ووشي الأسفار وتأليف العُلُوم فيه؛ في سعي منهم لبلوغ معانيه وأسراره، وإدناء البعيد منها، وتجلية المُبهم، وفتح المستغلق، وكلٌّ منهم يبذل من الجهد ما وَسِعَه، وسيظلون في فلكه دائرين، وعلى دربه سائرين، ومن شواطئه لا أغواره مُغترفين!.

لقد يمَّم العلماء صوب هذا الكتاب الكريم بحثاً وتأمُّلاً، ولم يدَّخروا في ذلك جهداً إلا بذلوه، ولا وعراً إلا سلكوه، ولكوني من خلف أولئك السلف؛ فقد آليتُ على نفسي الالتحاق بالركب بغية إدراكه؛ فحططتُ رحالي على واحدة من أخصب واحاته؛ لأتملَّى في مرآها، وأتنسَّمَ عبيرَ شذاها، وأتقلَّبَ بين مائها ومرعاها؛ تلك هي: ظاهرة التحول الدَّلالي في القرآن الكريم وتوليده للمفاهيم المعنوية الجديدة.

وقد تطلَّبتْ طبيعة البحث ومنهجيته أن يقوم على ثلاثة مباحث، تناول الأولُ منها ظاهرة الحياة والنُمُوِّ والتطوُّر في اللغات، في حين جاء المبحث الثاني للحديث عن ظاهرة التطوُّر والتحوُّل الدَّلالي في اللغة العربية والقرآن الكريم، واستعراض أنواعه بشيء من التفصيل والتمثيل، وعقدتُ المبحث الثالث لأعرض فيه شيئاً عن ظاهرة المجاز والظواهر التابعة لها وبيان أثرها في توليد المفاهيم القرآنية الجديدة، وخصَّصتُ المبحث الرابع والأخير لضرب طائفةٍ من الأمثلة والشواهد المُنتقاة بعناية لتلك الظواهر في آي الذكر الحكيم. وجاءتْ عقب ذلك خاتمة البحث لتكتنف أهم

النتائج التي توصَّلتُ إليها، يتلوها ثبت بأهم المصادر والمراجع التي أفدتُ منها في البحث.

المبحث الاول:

أنواع التطور والتحول الدلالي:

سبق لنا أن تعرَّفنا في المبحث الأول على أن اللغة كائن حيٌّ كسائر الكائنات الحية الأخرى؛ لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها، وأنها ظاهرة اجتماعية بحكم حياتها وترعرعها في أحضان المُجتمع، وتطوُّرها بتطوُّره ارتقاءً أو انحطاطاً. فليس بالضرورة أن تتطلع في مسيرتها التطوُّرية الحتمية نحو مستوىً مُتقدِّم رفيع؛ بل قد تتردَّى في درك وضيع؛ فتتأثر ألفاظها وعباراتها إيجاباً أو سلباً بالمستوى الحضاري والثقافي الذي تسير فيه الأمة؛ فنراها تتقلَّب ((في أعطاف النعيم تارة، وفي براثن الشقاوة تارة أخرى، على حسب ما تؤول إليه دلالتها. فأحياناً تكون دلالة خير؛ ثم تنقلب إلى دلالة سوء. وأحياناً يحدث العكس؛ فتسعد اللفظة بدلالة حميدة بعد أن شقيت في فترة سابقة بدلالة كانت لها سيئة))[٣].

وقد سبق أن تعرَّفنا على الاتصال الوثيق الذي يربط بين بين اللغات الإنسانية وبين الأمم المتكلِّمة بها، وما دام ذلك كذلك؛ فليس ببدع أن ((تتبع اللغاتُ الأممَ في صعودها وهبوطها، وفي تطوُّرها وتغيُّرها؛ إذ لا وجود للغة بغير المتكلِّمين بها، ولا تحيا إلا بحياة أبنائها. فكلُّ تطوُّر في حياة الأمة يترك أثراً قوياً واضحاً في لغتها... وتستجيب الأمم عادة لمظاهر الحياة؛ فتعمل على تغيير الدلالات في بعض ألفاظها؛ حتى يمكن أن تساير الزمن. فليست حياة المنزل في العصور القديمة كتلك التي نشهدها الآن في عصرنا الحاضر، وليست نظم الأسواق فيما مضى كتلك التي تسود الآن في العصر الحديث؛ فالأدوات غيرُ الأدوات، والمواصلات غيرُ المواصلات، والملابس غيرُ الملابس، والأبنية غيرُ الأبنية... ووجد الإنسان نفسه مضطراً إلى التطوُّر أيضاً في الألفاظ المُعبِّرة عن أدواته ومواصلاته وصناعاته وملابسه وأبنيته...))[٤].

((إن الألفاظ تتطوَّر؛ فتكتسب من المعاني أشباهاً جديدة لم تكن لها من قبل، وأن اللفظة تحيا حياة مُتجدِّدة، وهي أبداً في تغيُّر في دلالاتها، وفي طرائق استعمالها))[٥]، والدلالات تنمو معنا وتتحدَّد معالمها على قدر ما نصل إليه من معرفة؛ فنتبنَّاها منذ صغرنا، ونُغذِّيها بما يتاح لنا من علم وتجارب؛ فتتغيَّر وتتطوَّر مع الزمن حتى تستقر على حالٍ معينة في ذهن كلٍّ منا.

وتتأثر الدَّلالة في نُموِّها وتطوُّرها بمؤثراتٍ تختلف لدى كلٍّ منا باختلاف التجارب التي نمرُّ بها والظروف المحيطة بهذه التجارب.

((وربما تتغيَّر مدلولات كثيرة؛ لأن الشيء الذي تدلُّ عليه قد تغيَّرت طبيعته، أو عناصره، أو وظائفه، أو الشؤون الاجتماعية المتصلة به أو ما إلى ذلك))[٦]؛ فيفضي هذا التغيُّر إلى انبثاق دلالات جديدة لكلمات قديمة، ويُسمِّي العلماء هذا التغيُّر بـ«التحوُّل المعنوي»؛ وهو أن تكتسب الكلمة معنىً جديداً غير معناها الأصلي القديم، ويشيع عنها هذا المعنى الجديد بكثرة الاستعمال؛ حتى ليُنسى المعنى الأول، ولا يكاد يذكره أحد، وأغلب الألفاظ الإسلامية أو الشرعية سائرة على هذا المنوال؛ إذ تغيَّرت معانيها اللغوية الأصلية وتحوَّلت، واكتسب دلالات جديدة[٧].

إن مدلول الكلمة يتغيَّر على الدوام تبعاً للحالات التي يكون فيها استخدامها؛ إذ يُعدُّ الاستخدام واحداً من أكثر العوامل تأثيراً في توجيه دلالات ألفاظ اللغة وتحوُّلها نحو التعميم، أو التخصيص، أو التسامي، أو الابتذال، أو الانتقال الكلِّيِّ من حقلٍ دلالي إلى آخر؛ ذلك أن الألفاظ لم تُخلَقْ لتُحبس في خزائن من الزجاج؛ فيراها الناس من وراء تلك الخزائن، ثم يكتفون بتلك الرُّؤية العابرة. ولكنها وُجدتْ وتعارف الناس عليها؛ لغرض استعمالها والتعامل بها في شئون الحياة وحاجاتها اليومية المتعدِّدة، كما يتمُّ التعامل بالسِّلعة والعُملة تماماً من غير ما فرق[٨].

فكثرة استعمال العامِّ مثلاً في بعض ما يدلُّ عليه يُزيل مع تقادم العهد ومضيِّ

الزمن عموم معناه، ويقصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله، ومن ذلك: جميع المفردات التي كانت عامة المدلول، ثم شاع استعمالها في الإسلام في معان خاصة تتعلق بالعقائد، أو الشعائر، أو النظم الدينية.

وبالمقابل؛ فإن كثرة استعمال الخاص في معانٍ عامة عن طريق التوسُّع تزيل مع تقادم العهد خُصُوص معناه، وتكسبه صفة العموم. ومن ذلك مثلاً كلمات: «البأس»، و«الوِرْد»، و«الحُوَّة». فـ«البأس» في الأصل: الحرب، ثم كثر استخدامه في كلِّ شدَّة؛ فاكتسب من هذا الاستعمال عموم معناه. وأصل «الوِرْد»: إتيان الماء وحده، ثم صار إتيان كلِّ شيء وِرْداً؛ لكثرة استعماله في هذا المعنى العامِّ. و«الحُوَّة» في الأصل: شِيَة من شِيَات الخيل، وهي بين الدُّهْمة والكُمْتة، ثم تُوسِّع في استعمالها حتى صار كلُّ أسود أحوى؛ فيقال: ليلٌ أحوى، وشعر أحوى، ومرعى أحوى[٩]، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ [سورة الاعلى: ٥].

إن التحوُّل الدَّلالي ظاهرة طبيعية يمكن رصدها بوضوح في النظام اللغوي؛ إذ تغدو الكلمة معه ذات مفهوم أساسي جديد، وقد يحدث أن ينزاح هذا المفهوم ليحل محله مفهوم آخر. وهكذا يستمرُّ التطوُّر الدَّلالي في حركة دائبة تتميز بالبُطء والخفاء[١٠].

وكما أثر القرآن الكريم في معاني اللغة من حيث ما جاء به من اشتراع جديد؛ فقد كان له أثر كذلك في خلق معانٍ جديدة تتناول ذات المعاني التي كان يتعاورها العرب فيما بينهم؛ فتصرَّف فيها وهذَّبها، وزاد فيها أو نقص منها، ووضعها مواضع تناسبها[١١].

هذه المعاني الجديدة هي ما تعرف بـ«الألفاظ الإسلامية» التي جاءت تعبيراً عن المعاني الإسلامية الجديدة التي لم يكن للعرب سابق معرفة بها؛ إذ تقبَّلت العربية برحابة صدرٍ من عصر المبعث زاداً سخياً من أساليب البيان القرآني المعجز، وتهيأت لتطويع ألفاظها للدلالة الوافية على ما استُحدث في الحياة الإسلامية الجديدة من معانٍ جديدة؛ كـ«الإسلام»،

و«الإيمان»، و«الكفر»، و«الفسوق»، و«الفاحشة»، و«الزور»، و«الجبت»، و«الطاغوت»، و«الهُدى»، و«الضَّلال»، و«التقوى»، و«المغفرة»، و«النعيم»، و«الرسالة»، و«الشهادة»، و«الرُّكوع»، و«السُّجُود»، و«المعروف»، و«المُنكر»، و«الجاهلية»، و«النِّفاق»، و«التيمُّم»، و«الصَّلاة»، و«الزكاة»، و«الصَّوم»، و«الحجِّ»، و«الرِّبا»، و«الجزية»، و«الأنفال»، و«الفَيْء»، و«العِدَّة»، و«السَّاعة»، و«البعث»، و«القيامة»، و«الجنة»، و«النار»، و«الصِّراط»... إلخ[12].

فكلمة «الإسلام» تعني في الأصل: البراءة، والتسليم، والخضوع، والتحية، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠]، وقد أصبحت هذه الكلمة فيما بعدُ أشهرَ كلمة وأشهر مُصطلح في حياة المسلمين، والإسلام في المُصطلح القرآني يعني: اتباع أمر الله عز وجل، والخضوع والانقياد له[13]، قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَٱلصَّٰدِقِينَ . ﴿١٩﴾ وَٱلصَّٰدِقِينَ .. وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠].

وكلمة «الصَّلاة» كانت تعني في الأصل: الدُّعاء والطلب والاستغفار، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [سورة الاحزاب: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ ﴾ [سورة التوبة: ١٠٣]، ثم تخصَّصت بعد ظهور الإسلام في معنى العبادة المعروفة بأركانها وشروطها وكيفيتها؛ لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدُّعاء؛ حتى باتتْ لا تنصرف -عند إطلاقها -إلى غير هذا المعنى، وانتقل معناها من الدُّعاء والطلب بين إنسان وإنسان إلى الدُّعاء والطلب من الله عز وجل، وهي مشتقة من الصِّلة؛ لأنها تصل الإنسان بخالقه، وتُقرِّبه من رحمته[14]، قال جل وعلا: ﴿ ... فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [سورة النساء: ١٠٣].

وكلمة «الزَّكاة» كانت بمعنى: النَّماء والزيادة في الشيء وما تفرَّع عنه من معانٍ مجازية؛ كالإصلاح والتطهير والبركة، ومن ذلك: قولُه عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [سورة التوبة: ١٠٣]، وقوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء: ٤٩]، وقوله عز من قائل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة النور: ٢١]، وقوله جل جلاله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [سورة النجم: ٣٢]، ثم أصبح لها المعنى الشرعي المعروف؛ وهو الفريضة المالية المُتمثِّلة بالقدر الواجب إخراجه لمستحقيه في المال الذي بلغ نصاباً معيناً بشروط مخصوصة؛ حتى أضحى مدلولها الحقيقي مقصوراً على تلك الفريضة[١٥]، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الاعراف: ١٥٦]، قال سبحانه: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [سورة الحج: ٧٨]، وقال عز وجل: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [سورة التوبة: ١١]، ((وما من شكٍّ في أنها لم تكنْ معروفة في الجاهلية بهذا المعنى؛ لأن العرب في الجاهلية لم يعرفوا نظاماً اقتصادياً مُحدَّداً؛ بل لم تكنْ لديهم طرق مُنظَّمة لجمع المال أو إنفاقه))[١٦].

و«الصِّيام»: من حيث الاشتقاق اللغوي كلمة عربية معروفة متداولة، يقال: صام الفرس عن معلفه صوماً وصياماً؛ إذا لم يعتلف. وقيل: الصائم من الخيل: الساكن الذي لا يطعم شيئاً. وقد تطوَّر هذا المعنى إلى عدَّة معانٍ مجازية، منها: معنى الامتناع والكفِّ، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، وقد فُسِّر الصَّوم هنا بما بعده؛ وهو قولها عليها السلام: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢٦]!

هذه الشواهد كلُّها تدلُّ على أن الصيام تطوَّر أولاً من معناه اللغوي؛ وهو السُّكُون

والثبات والامتناع والكفُّ، إلى المعنى المجازي (الإسلامي)؛ وهو الانقطاع والامتناع عن الأكل والشرب والنكاح على وجهٍ مخصوص في شهرٍ مُعيَّن؛ هو شهر رمضان؛ وذلك لاشتماله على طائفة من مظاهر الإمساك والإضراب التي تشمل الامتناع والكفَّ عن تناول الطعام والشراب، وعن تعاطي سائر المُفطِّرات الأخرى في أيامٍ معدودة وأوقات مخصوصة[17]، قال جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ وَٱلصَّٰدِقِينَ .. وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥].

وكلمة «الحجِّ» كان معناها: القصد والاتجاه مطلقاً، أو القصد إلى عظيم، أو القيام بأمرٍ كبير، قال المُخبَّل السَّعدي[18]:

وأشهدُ من عوفٍ حلولاً كثيرة
يحُجُّون سِبَّ الزِّبرِقان المزَعْفَرا

ثم اكتسب بعد نزول القرآن الكريم المعنى الشرعيَّ المعروف؛ وهو التَّوجُّه والقصد إلى بيت الله الحرام في أيام محدودة ما بين الثامن والثاني عشر من شهر ذي الحجة من كلِّ عام؛ لأداء أفعال مخصوصة نصَّ عليها القرآن الكريم، وبيَّنتها السُّنَّة المُطهَّرة؛ كالإحرام، والطواف بالبيت، والسَّعي بين الصَّفا والمَرْوة، والوقوف بعَرَفة، ورمي الجمار، وهو فرضٌ على المسلم المُستطيع مادياً وبدنياً، مرَّة في العمر[19]، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾ [سورة آل عمران: ٩٧]، وقال عز من قائل: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾ [سورة الحج: ٢٧].

و«التيمُّم» في الأصل: التَّوخِّي والقصد إلى أيِّ مكان، قال تعالى: ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ ﴾ [سورة المائدة: ٢]. أما في القرآن الكريم؛ فهو التَّوخِّي والقصد كذلك؛ ولكن وُرُوده في الآيات التي تأمر بالصَّلاة، وتوجب الاغتسال والتطهُّر

قبلها ربط بين هذا التوخي والقصد وبين فعلٍ خاصٍّ أمر به القرآن، وبيَّن كيفيته رسول الله ﷺ؛ وهو مسح الوجه واليدين بالتراب الطاهر في حالة عدم وجود الماء، أو تعذَّر استعماله -بسببٍ خاصٍّ -في حال وجوده؛ فهو الوضوء على البدل[٢٠]، قال عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [سورة المائدة: ٦].

«الرُّكُوع»؛ إذ ((أصبح الرُّكُوع مُصطلحاً إسلامياً عندما فرضت الصَّلاة، وعرف الناس هيئتها من سُنَّة النبي ﷺ. والرُّكُوع بمعناه اللغوي شديد الإيحاء بالمعنى الإسلامي؛ ولكن المعنى الأول قد نسي... وتطوَّر منذ العصر الجاهلي من الانحناء المادِّيِّ، إلى الخضوع والانكسار، ثم تطوَّر مرة أخرى إلى معنى القيام بهيئة الصَّلاة كما هو معروف))[٢١]، قال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحج: ٧٧].

«المغفرة»؛ فإن تلك اللفظة قبل نزول القرآن الكريم ((كانت بمعنى: الستر مطلقاً، وأصبحت بمعنى: الصفح والعفو))[٢٢]؛ فمن الأول قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [سورة البقرة: ٢٦٣]، ومن الثاني قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [سورة يس: ١١] وقسْ على ذلك جميع أفراد هذه الطائفة وسائر مفرداتها.

والذي تتضح رؤيته من الأمثلة أعلاه وأضرابها أنه يبقى الارتباط بين الدَّلالة المنقول عنها والدَّلالة المنقول إليها قائماً وثيقاً لا انسلاخ بينهما ولا براءة.

إن البيان القرآني قد جاء بقوالبه المعنوية من معدن ما كان دارجاً على ألسنة العرب إبَّان نزول الوحي الحكيم، ولم يُسقِطْ عليهم دلالاتٍ لم تكن قد طرقتْ آذانهم من قبلُ؛ وإلا لقالوا: ما هذا

بلساننا، فأنى لنا أن نفهم عنه؟!. وما جاء به القرآن الكريم من مدلولات إسلامية لبعض مفرداته؛ كـ«الإسلام»، و«الإيمان»، و«الكفر»، و«الفُسُوق»، و«التقوى»، و«المغفرة»، و«الرُّكُوع»، و«السُّجُود»، و«الشريعة»، و«الصَّلاة»، و«الزكاة»، و«الصَّوم»، و«الحجِّ»؛ فإنما نسلها من ذات المدلولات التي كانت ساكنة ألسنتهم في أشعارهم وخطبهم.

نعم، هناك من الألفاظ التي وردتْ في القرآن الكريم ما كان جديداً في نفسه من الأساس، ليس في دلالته ومعناه فحسبُ[٢٣]، ولكن ذلك كان واقعاً ضمن نطاق محدود جداً لا يكاد يجاوز أصابع اليدين عدَّاً؛ كألفاظ: «الأُمِّيّ والأُمِّيِّين»، و«الجاهلية»، و«النفاق»، و«الجِبْت»، و«الطاغوت»، و«السُّحت»، و«الجزية»، و«البعث»، و«القرآن»، و«السورة»، و«التَّفث»[٢٤]؛ فلا يصحُّ تعميمه وجعلُه قاعدة لغوية مُطَّردة.

وللتطوُّر في دلالات ألفاظ اللغة العربية والقرآن الكريم أعراض وأشكال ومظاهر؛ إذ تسلك تلك الألفاظ في تبديل معانيها وتحويلها إحدى الطرائق الآتية، وهي مُطَّردة في جميع اللغات، وليست خاصة بواحدة منها:

١. التغيُّر المُتسامي الراقي: وقد يسمى: «التصعيد» في اللغة؛ وذلك يتمثل في انتقال الكلمات من المعنى الملموس أو المعنى الوضيع إلى المعنى المُجرَّد أو المعنى السامي؛ إذ يتضح من اسم هذا النوع من أنواع التغيُّر والتحوُّل في المعنى أنه يطلق على ما يصيب الكلمات التي كانت تشير إلى معانٍ هينة أو وضيعة أو ضعيفة نسبياً، ثم صارت تدلُّ في نظر الجماعة الكلامية على معانٍ أرفع أو أشرف أو أقوى!.

ومن أشهر الأمثلة الموضحة لهذا النوع من التغيُّر وأظهرها: ما يتعلَّق بالمستويات الاجتماعية والفوارق الطبقية؛ ففي لغتنا العربية أتى على الكلمتين «مبعوث»، و«رسول» عهدٌ كانتا فيه بمعنى: الشخص الذي يرسله المرء في مهمة مهما كان شأنها؛ إذ كان في حينه نظيراً لمُوزِّع البريد في عصرنا، ثم تطوَّرتا وأصبح لهما تلك الدَّلالة السامية التي

نألفها الآن؛ والمُتمثِّلة بالكائن المتوسِّط بين الوحي الإلهي وسائر الخلق[٢٥]، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل: ٣٦]، وقال جل جلاله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ [سورة المزمل: ١٥].

فكما قد تنحطُّ الدَّلالة في ألفاظ ضُربتْ عليها التعاسة وغلبت عليها شِقْوتها؛ فقد ترقى في ألفاظ أخرى كُتبتْ لها السعادة ونالت من الحُظوة ما لم تنله غيرُها!. بَيْدَ أن ضعف الدَّلالة وانحطاطها أكثر ذيوعاً وانتشاراً في اللغات بوجه عامٍّ من عزِّها وارتقائها.

٢. التغيُّر الانحطاطي الخافض؛ فكثيراً ما يصيب الدَّلالة بعضُ الانهيار أو الضعف؛ فنراها تفقد شيئاً من أثرها في النفوس والأذهان، أو تفقد مكانتها بين الألفاظ التي تنال من المُجتمع الاحترامَ والتقدير!.

مثال ذلك: كلمة «الكرسي» التي استُعملت في القرآن الكريم بمعنى: «العرش» في قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]؛ بَيْدَ أن هذه الكلمة أصبحت الآن تطلق على كرسي المكتب وكرسي الطاولة!. والوصف «لئيم» في اللغة العربية كانت دلالته في الأساليب القديمة أقوى مما هي عليه في ألسنة الناس اليوم!. ويقال في كلِّ هذا: إن دلالة اللفظ قد أصابها الضعف بعد القوة، والفتور بعد الفورة[٢٦]!.

وهناك ألفاظ أخرى تُصيبها الخِسَّة بعد الرِّفعة، وتفقد الاحترام الذي كانت تحظى به بين أوساط عامَّة المُجتمع؛ كما رأينا أن «طول اليد» قد ورد في الحديث الشريف بمعنى: السخاء والإنفاق والجود بالمال، وذلك حين سألت النبيَّ ﷺ أزواجُه (رضي الله عنهن): ((أيُّنا أسرع لحاقاً بك يا رسول الله؟.))؛ قال ﷺ: ((أطولُكنَّ يداً))[٢٧]!. والكلمة -كما هو متعارف لدينا جميعاً -تستعمل اليوم على الألسنة وفي لهجات الخطاب بمعنى: «السرقة»[٢٨]!.

وكذلك يصدق هذا المفهوم أو هذا النوع من التغيُّر على الكلمات التي كانت

دلالتها تعدُّ في نظر الجماعة نبيلة ورفيعة وقوية نسبياً، ثم تحوَّلت هذه الدلالات فصارت دون ذلك مرتبة، أو أصبح لها ارتباطات تزدريها الجماعة؛ مثل كلمة: «جرثومة» التي كانت تعني: «أصلاً»؛ أي عندما نقول: جرثومة الإسلام؛ نعني: أصل الإسلام، فلما تقادم عليها الزمن صارت تعني الجرثومة المعروفة! ومثلها كلمة «العصابة» التي تعني: الجماعة من الناس؛ لأنهم تُعصب بهم الأمور وتُنجز، وهم أيضاً: الجماعة المترابطة من الناس الذين يتعصبون لبعضهم؛ أي: يتقوى بعضهم ببعض؛ فهم جماعة متعصبة متعاضدة، ومن ذلك: دعاء النبيﷺ: ((اللهم إن تَهلِكْ هذه العصابة؛ لا تُعبدُ في الأرض!.))[٢٩]، ولكنها باتت تطلق على قُطَّاع الطرق وسُرَّاق المال ومهلكي الحرث والنسل[٣٠]!. ومثلها كلمة «الزمرة» التي تعني في أصل اللغة: «الفوج أو الجماعة القليلة المتفرقة من الناس»، ثم باتت تطلق على الجماعة المذمومة الخارجة عن القانون والآداب والأخلاق والأعراف العامة!.

كما لوحظ أن أكثر الكلمات التي تميل إلى أن تنحطَّ دلالةً هي على وجه خاصٍّ تلك الدائرة حول الجنس وما يتصل به، وحول ما يثير في الجماعة الكلامية مشاعر؛ كالخجل والخوف والذعر، وحول ما يثير بطبيعته اشمئزازاً أو نفوراً.

وقد باتت اللغة العربية الكريمة بعد الإسلام تتلمَّس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب والرِّفق في التعبير عن هذه الشئون -وأعني بها الجنس وما يتصل به من العلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة-فتهرع إلى التلميح والتورية، وتلجأ إلى المجاز في اللفظ، وتستبدل الكناية بصريح القول: القُبُل، الدُّبُر، قارب النساء، تغشَّى زوجته، لامس امرأته، أفضى إلى أهله، قضى وطره... إلخ. لقد كان لها بهذا الصدد في ألفاظ القرآن وعباراته المُحتشمة أسوةٌ حسنة[٣١].

وإن نمَّ هذا التأدُّب الراقي وهذه الحشمة العالية في التعبير عن شيء؛ فإنما ينُمَّان عما كان عليه العربيُّ إبَّان نزول القرآن الكريم من حشمةٍ وأدبٍ عاليين

في شئونه ومعاملاته وعلاقاته مع أخيه العربي؛ الأمر الذي سما وارتقى بأساليب لغته سُمُوَّاً تردَّد صداه في أرجاء ألفاظها وتراكيبها؛ لا سيَّما إذا عرفنا أن القرآن الكريم نزل مُنسجماً تمام الانسجام مع البيئة التي كانت تُقلُّه، ومُتوافقاً كلَّ التوافق مع أنماط عيشه التي كان يزاولها، ومراعياً إلى حدٍّ بعيد سَنَنَه في الخطاب والتحاور، وأفانينه في فنون القول.

٣. التغيُّر نحو التعميم والتوسيع: ويكون بتوسيع معنى اللفظ ومفهومه، ونقله من المعنى الخاص الدالِّ عليه إلى معنىً أعمَّ وأشمل، ومن ذلك: كلمة «مكتب»؛ فهي تدلُّ على مكتب الأستاذ، ومكتب الطبيب، ومكتب المدير، ومكتب الوزير، ومكتب العدالة... إلخ[٣٢].

ومن هذا التعميم أيضاً: أن كلمة «البأس» كانت في أصل معناها خاصة بالحرب. ثم كثر استخدامها في كلِّ عنت وشدَّة على سبيل التعميم، وإن الناس في خطابهم الدارج الآن يُطلقون كلمة «الورد» على كلِّ زهر، وكلمة «البحر» على النهر والبحر. ومن هذا التعميم أيضاً: تحويل الأعلام إلى صفات؛ فالعَلَم «نمرود» قد يُطلق ويُراد منه: المُتألِّه، و«فرعون» قد يُطلق ويُراد منه: الطاغية المُتجبِّر، و«قارون» قد يُطلق ويُراد منه: المغرور المُتغطرس، و«قيصر» قد يُطلق ويُراد منه: العظيم، و«آدم» قد يُطلق ويُراد منه: الأب الكبير، أو الأصل، و«أيوب» قد يُطلق ويُراد منه: الصابر على البلاء واللأواء، و«يوسف» قد يُطلق ويُراد منه: الجميل الرائع، أو العفيف البريء، و«مريم» قد يُطلق ويُراد منه: العفيفة، طاهرة الذيل، و«حاتم» قد يُطلق ويُراد منه: الكريم المضياف... إلخ[٣٣].

ومثلما عقد السُّيوطيُّ فصلاً خاصَّاً لتخصيص الدَّلالة وتضييق نطاقها في كتابه «المزهر»؛ فقد عقد فصلاً آخر لتعميمها وتوسيع نطاقها، سمَّاه: «في العام المخصوص؛ وهو ما وُضع في الأصل عاماً، ثم خُصَّ في الاستعمال ببعض أفراده»، وطرح عليه كثيراً من الأمثلة[٣٤].

٤. التغيُّر نحو التخصيص والتضييق:

((وهو تحويلُ اللفظ من معناه العامِّ إلى معنىً خـــاصٍّ ضيِّف))[٣٥]، ويظهر هذا في لهجات الخطاب؛ مثل لفظة «الطهارة»، أو «الطُّهُور» التي تخصَّصت وأصبحت في لهجـــات الخطاب تعني الختان، بعدما كانت تدلُّ على نقيض النجاسة أو النَّجَس. وكلمة «الحريم» بعد أن كانت تطلق على كلِّ مُحرَّم لا يُمسُّ؛ أصبحت الآن تطلق في لهجات الخطاب على النساء خاصة. وكلمة «الفاكهة» في العربية كان من معانيها: الثمار كلُّها، ثم خُصِّص هذا المعنى للدلالة على أنواع معينة منها؛ كالتفاح والعنب والموز والخوخ. وكذا الحال في كلمة «العيش» حين تطلق على الخبز خاصة في بعض لهجات الخطاب العربية؛ ولا سيما المصرية منها، بعدما كانت تطلق على عموم الزاد أو الطعام[٣٦].

لقد رصدت اللغة لتحديد الدلالات والوُجُوه التي تخرج إليهـــا لفظة ما وتضييقهـــا وتخصيصهـــا والتقليـل من عدد أفرادها وسائل عدَّة، لعـــل من أهمها وأبرزها ما اصطُلح على تسميته بـ«تخصيص الدَّلالة»، أو «تضييق المعنى»، وتعني: تحويل دلالة اللفظ من معناه العامِّ الواسع إلى معنىً خاصٍّ ضيق، أو من الدَّلالة الكلية إلى الدَّلالة الجزئية؛ نتيجة إضافة بعض الملامح التمييزية له، فكلما زادت الملامح لشيء ما؛ قل عدد أفراده؛ أي أن العلاقة بينهما عكسية. فهناك دلالات عامة أو كلية؛ بمعنى أنها تنطبق على كلِّ فرد من طائفة كبيرة[٣٧].

فحين نقول مثلاً: «كتاب»؛ تتشكل في أذهاننا صورة معينـــة تأخذ شكل الكتاب؛ بَيْدَ إنها تبقى مع ذلك عامة، بلْ عائمة؛ إذ أن الكتب في الدنيا بلا عدد، ويمكن-مع ذلك -أن يكـــون هذا الكتابُ من بين ذلك الحشد الهائل كتابَ محمد، أو زيد، أو كتاب المكتبة، أو الكتاب المُصوَّر، أو ربما عقد الزواج أو القِرَان، أو الكتابة، أو الحساب، أو عدَّة المرأة، أو الفرض، أو القضاء، أو الأمر، أو العلم، أو القرآن، أو التوراة، أو الإنجيل... إلخ[٣٨].

فإذا ما رمنـا تحديد دلالـــة لفظ

الـ«كتاب» أكثر، أو تضييقها؛ قلنا مثلاً: «كتاب الله»؛ إذ يحتمـــل: الأمر الذي فرضه على عباده، أو قضاءه وحُكمه الذي ضربه، أو أحد كتبه السماوية!. وإن نحن أردنا التخصيص أكثر؛ قلنا: «كتاب الله المجيد»... ويمكننا إدخال صفات وإضافات من شأنها أن تُخصِّص دلالة الكتاب تخصيصاً تاماً؛ فقولنا: «كتاب الله» يستبعد آلافاً مُؤلَّفة من أنواع الكتب الأخرى؛ فهي لذلك أخصُّ في دلالتها من كلمة «كتاب»، وقولنا: «كتاب الله المجيد» يستبعد كتب الله الأخرى المنزلة على رسله الكرامﷺ؛ فهي لذلك أخصُّ في الدَّلالة من مُجرَّد قولنا: «كتاب الله»!.

وما تزال الدَّلالة في تضييق وتخصيص مستمرين حتى تصل إلى العَلَمية أو ما يشبهها؛ فقولنا في كلمة «الكتاب» بأنه «كتاب الله المُعجِز، المتلوُّ، المنزل على نبيه مُحمَّدﷺ، المنسوخ في المصاحف، المُتعبَّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس»؛ يصل بالدَّلالة إلى أضيق الحدود، وتكـــاد تكون الدَّلالة هنا كالدَّلالة في الأعلام وأسماء الأشخاص؛ كـ«محمد، وأحمد، وعلي»!.

فهذه الإضافـــات التمييزيـــة قد قلَّلت -كما لاحظنا -من عدد أفراد لفظ «الكتاب» كما قلَّلت تلك من أفراد لفظ «الشجرة»، فكلَّما زادت الملامح لشيء ما؛ قلَّ عدد أفراده، والعلاقة بينهما عكسية، كما أن العلاقة بين القرائن والمعنى طردية، فكلَّما كثرت القرائن في النَّصِّ الواحد وتنوَّعت؛ صار المعنى في سياق النص أكثر تحديداً ووضوحاً ودقة، أو ((كلَّما كان وصف المقـــام أكثر تفصيلاً؛ كان المعنى الدَّلالي أكثر وضوحاً))[٣٩]؛ إذ إن غياب المقام يؤثر تأثيراً مباشراً في فهم الكلام؛ فيجعله يحتمل غير ما معنى[٤٠].

وقد عقد السُّيوطيُّ لهذا النوع من الألفاظ فصلاً خاصَّاً في كتابه «المزهر»، سمَّاه: «في العام المخصوص؛ وهو ما وُضع في الأصل عاماً، ثم خُصَّ في الاستعمال ببعض أفراده»، وأورد لـــه كثيراً من الأمثلة[٤١].

٥. الانتقـــال والانزياح الدَّلالي بسبب المُشابهة، أو المُجاورة: ((وهو تحويل دلالـة اللفظ من مجالٍ إلى آخر على

غير وجه الخُصُوص أو العُمُوم))[٤٢]، ويتمُّ هذا الشكل من التطوُّر بانتقال اللفظ من معناه إلى معنىً مشابهٍ له، أو قريبٍ منه، أو بينه وبينه مناسبة وحلقة وصلٍ؛ أي أن الحالة التي تنتقل إليها الدَّلالة ترتبط غالباً بالحالة التي انتقلت عنها بإحدى العلاقتين أعلاه اللتين يُعوَّل عليهما كثيراً في تداعي المعاني بعد استدعائها، وهذا أمرٌ قرَّره علم النفس حديثاً، إذ إن حضـــور معنىً في الذهن يدعو إلى الذاكرة بعض المعاني المرتبطـة معه بعلاقة المُشابهة أو المُجاورة، وهذا هو تفصيل مُراد علماء اللغة الذين قرَّروا أن تطوُّر الدَّلالة خاضع لقـــانون «التماثل»[٤٣].

فتارة يعتمد انتقال الدَّلالة وتحوُّلها على علاقة «المُشابهـة»؛ كتحوُّل معنى «المجـد»-وهو في الأصل: امتلاء بطن الدابـة من العلف -إلى معنى امتـلاء الإنسان بالكرم. و«العقل» كان في القديم: الرباط، وصار: عقل الإنسان، والعلاقة بينهما أنه كما أن الرباط يشدُّ الدابة من أن تجنح أو تجمح؛ فكذلك عقل الإنســان يشدُّه عن النـــزق والوقوع في الزلَّات. والشيء عينه يُقال في ألفـــاظ كثيرة؛ كـ«الغفران» الذي تحوَّل من مطلق السَّتر والتغطيـة لأيِّ شيء إلى معنى التجـاوز والصفح عن الذنوب، و«الوغى» الذي يعني في الأصـــل: اختلاط الأصوات وتداخلها في الحرب؛ فانـزاح وتحوَّل إلى الحرب نفسها، وكتحوُّل معنى «الأفن»-وهو في الأصل: قلَّة لبن الناقة-إلى معنى السَّفه وقلَّة العقل... إلخ.

وتـــارة يعتمد على علاقة «المُجاورة المكانيـــة»؛ كتحوُّل معنى «الظعينـة»-ومعناها في الأصل: المرأة في الهودج -إلى معنى الهودج نفسه، ثم إلى معنى الناقة أو البعير الذي يحمله. وكتحوُّل معنى «الرَّحْل» مما يوضع على البعير من متاع إلى البعير نفسه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة يوسف: ٦٢]. وكتحوُّل معنى «الذقن» في بعض اللهجات العامية إلى معنى اللِّحيـة؛ فيقول أحدهم: حلقتُ

ذقني. وكتحوُّل لفظة «مكتب» وانتقالها في الدَّلالة من نوع القماش والغطاء الذي كان يوضع على الطاولة، إلى اسم تلك الطاولة، ثم إلى الغرفة والمكان الذي توضع فيه، فالمبنى كاملاً.

وتارة يعتمد على علاقة «المُجاورة الزمانية»؛ كتحوُّل معنى «العقيقة» -وهي في الأصل: الشعر الذي يخرج على رأس الولد من بطن أمه -إلى معنى الذبيحة التي تنحر عند حلق ذلك الشعر؛ وبذا نلاحظ أن كثرة الاستخدامات المجازية لتلك الألفاظ وأمثالها قد أفضى إلى اندثار معانيها اللغوية الحقيقية الأصلية التي انحدرت منها وانقراضها تماماً، واستحالتها حقائق في تلك المعاني المجازية الجديدة الحادثة التي تقمَّصتها وتلبَّست بها؛ بمعنى أن هذا المعنى المجازي يحلُّ محلَّ المعنى الحقيقي الأصلي[٤٤].

وإنما يتمُّ ذلك كلُّه -كما رأينا -عبر ما يُسمَّى بـ«المجاز» الذي يُعدُّ في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن منها موقعاً في القلوب والأسماع؛ إذ تُبنى العلاقة فيه بين أطراف التعبير على أساسٍ من الابتكار والإبداع! ذلك أن الأدب لا يكون أدباً إلا بخروج الكلمات فيه عن دلالاتها اللغوية، وشحنها بفيضٍ مِدْرار من الصُّور والأخيلة[٤٥]. والصُّورة المجازية الحافلة قائمة على أنها تشكيلٌ لغويٌّ أساسُه التشبيه، أو الاستعارة، أو الكناية.

ومن أوضح ما تكون تلك العملية فيما يُسمَّى بـ«الكنايات الأدبية»؛ كأنْ يُكْنى عن الكرم بكثرة الرماد، وعن الشجاعة بطول النجاد، وعن العطاء والبذل بطول اليد، وعن البخل والشُّحِّ بغلِّها، وعن التَّنعُّم والتَّرفُّه بنوم الضُّحى، وعن المسكنة والتذلُّل والتعرُّض لما في أيدي الناس بإراقة ماء الوجه، وعن الحسرة والندامة والتوجُّع بالتَّأوُّه أو بخفق الكف على الكف، وعن شدَّة الحنق والغيظ بعضِّ الأنامل، وعن الخوف والقلق والحيرة بكثرة التَّلفُّت يميناً وشمالاً، وعن الفزع والهلع والرُّعب بدوران الأعين، وعن الشعور بالخزي والعار والشنار أو بالخسران المبين بسواد الوجه، وعن الشعور بالسعادة الغامرة

ببياضه ونضارته وإشراقه... إلخ.

ولم يكن أثر القرآن الكريم في ألفاظ اللغة العربية مقصوراً على استحداث دلالات جديدة لها في سياقاته الخاصة، أو التوسع في مدلولاتها، أو نقل معانيها إلى معان أخرى لأسباب تقتضيها؛ ((وإنما تعدَّى ذلك إلى خلق ألفاظ لم تكن معروفة في العهد الجاهلي!. وقد قالوا: إن العربي إذا سمتْ ملكته، وقويتْ فصاحته؛ ارتجل ما لم يُسبقْ اليه، وقالوا: إن رؤبة والعجاج كانا يرتجلان ألفاظاً لم يُسبقا اليها، ولم تسمع من غيرهما))[٤٦].

فهناك من الألفاظ التي اوردها القرآن الكريم ما كان جديداً في نفسه من الأساس، ليس في دلالته ومعناه فحسبُ، وأعني بـ«الجديد في نفسه»: ما لم يسبق للعرب استعمال لفظه في خطابهم، ولم يرد في كلامهم البتة قبل نزول القرآن الكريم، وبـ«الجديد في معناه»: ما عرفوا لفظه وألفوه واستعملوه؛ ولكن بمعنىً غير المعنى الذي جاء به القرآن الكريم، ودلالة غير دلالته؛ ومن ذلك الجديد في نفسه الذي جاء في عُرف القرآن الكريم: ألفاظ «الأُمِّيّ والأُمِّيِّين»، و«الجاهلية»، و«النفاق»، و«الجِبْت»، و«الطاغوت»، و«السُّحت»، و«الجزية»، و«البعث»، و«القرآن»، و«السورة»، و«التَّفث»[٤٧].

جاء في «المزهر»: ((إن لفظ «الجاهلية» اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة، و«المنافق» اسم إسلامي لم يعرف في الجاهلية))[٤٨]، خُصَّ به من أبطن خلاف من أظهره؛ بأن ستر كفره وأظهر إيمانه!. وما قيل عن لفظتي «الجاهلية»، و«النفاق» يقال عن سائر الألفاظ الجديدة الأخرى.

فهناك معانٍ إسلاميةٌ جديدة أحدثها القرآن الكريم؛ فنبتتْ في البيئة الإسلامية بسبب القوانين الجديدة التي سنَّها الإسلام، وترعرعت وسط الظروف التي حدثت فيه، ولم تكن موجودة ولا معروفة في حياة الجاهليين البتة، وبالتالي لم ترد في خطبهم ولا في أشعارهم، ولم يعرفها أهل اللغة بعدهم إلا من أهل التفسير، وهناك معانٍ أخرى تحوَّل معناها عما كان عليه قبل نزول القرآن، ولم تكن تلك المعاني لتعرف لولا استعماله لها في مواقعها

وسياقاتها الجديدة[٤٩]!.

المبحث الثاني:

ظاهرة المجاز وأثرها في توليد المفاهيم القرآنية الجديدة:

أستعمل القرآن الكريم اللغة أستعمالاً جمالياً فنياً؛ إذ تعامل مع الألفاظ تعامل المستهلك والمنتج؛ فاستهلك طاقاتها الدَّلالية كلها؛ فأنتجها إنتاجاً فريداً؛ فجاءت ألفاظه مشدودة دوماً إلى حفز دلالي يتناسل، وهذا التناسل الدَّلالي واحد من أجلِّ مظاهر التأثير والفن، وأسمى سبل بعث الجمال في آفاق الخطاب الإلهي، وأبرز هواتف الوحي المعجز.

فالألفاظ في السياق القرآني جاءت محفورة، منحوتة، قد مُلئت دلالة وإشارة وإيحاءً؛ فليس للمتأمل فيها الحق بأن يقف عند حدود أبعادها المادية؛ فالقرآن المجيد حين استعملها لم يكن ليكتفي بتلك الدلالات المحدودة؛ فجاء متوخياً الإشباع الدَّلالي لتلك الألفاظ؛ من الصوت والمعنى الأساس، إلى الإشارة والرمز، فالمعنى العاطفي والإيحائي، وكان ((إخراج مدلول اللفظ والجملة من المعنى المُجرَّد إلى الصُّورة المحسوسة المُتخيَّلة))[٥٠] واحداً من أهم الجوانب العامة التي تمتاز بها بياناته العلية[٥١].

فالمجاز القرآنيُّ يتوخَّى تحقيق جملة من الخصائص الفنية التي ((تنطلق من مهمته الإبداعية، ومن مهمته الإضافية للتراث، ومن مهمته التهذيبية للنفس، ومن مهمته التنزيهية للباري عز وجل. وهذه المهمات وظائف أساسية في منظور المجاز القرآني، وهي مؤثرات صلبة تحدد لنا تحرير الألفاظ وتوجه المعاني))[٥٢].

ولما كان المجاز هو الجسر اللغوي الذي تنتقل عبره الدوال إلى المدلولات الجديدة؛ كان ذلك مظهراً على قوة الطاقة التعبيرية في اللغة، ولا أدل على ذلك من أنه ظاهرة عامة لكل الألسنة، يلجأ إليها المُجتمع اللغويُّ لتوليد المعاني الضرورية وإثراء الرصيد اللغوي. ولا غرو؛ فهو الذي يأخذ بيد اللغة من الحاجة إلى الكفاف، ومن التوحد الدَّلالي إلى طواعية التكاثر والتعدد؛ فيصبح هذا التوليد المستمر في اللغة ينبوعاً لا ينضب، وتستوعب اللغة به المدلولات المستحدثة

بتفجير طاقاتها الكامنة القادرة على موازاة كلِّ ما يطرأ من جديد في عالمها[٥٣].

وبذا يكون المجاز مُحرِّك الطاقة التعبيرية للُّغة في ازدواجها بين تصريحية وإيحائية، بين طاقة حرَّة سخية، وطاقة سياقية جافة؛ إذ تتنقل اللغة عبره ما بين التصريح والإيحاء؛ وبذا يكون بمثابة الجسر الذي تنتقل عبره الألفاظ إلى حقولها الدَّلالية المتعددة، وترقى في تعاملها الفني والإبداعي؛ مما يمنحها حياة مستديمة لا تبيد ولا تنتهي. فيكون أثره حاضراً في كلِّ من لغة التواصل ولغة الإبداع. فمكمن المجاز: استعداد اللغة لإنجاز تحولات دلالية بين أجزائها، يتحرك الدالُّ فينزاح عن مدلوله؛ ليلابس مدلولاً مستحدثاً. وهكذا يصبح المجاز جسر العبور، تمتطيه الدوالُّ بين الحقول الدَّلالية المختلفة[٥٤].

والتعبير المجازي المُوحي أبلغ تأثيراً في نفس سامعه وفي عقليته من التعبير الحقيقي المباشر؛ إذ يحفز ذهن السامع والقارئ، ويستثيره في التفكُّر في المعنى غير المباشر للفظ. وهو -زيادة على ما تقدَّم- يُكسب الألفاظ مرونة أكبر في التعبير عن مدلولاتها؛ فاللفظ الواحد يستعمل في أكثر من معنى، منها القريب ومنها البعيد؛ مما يشي بالمهارة التي يمتلكها المتلفظ به، وينمُّ عن إبداعه ومقدرته في التصرف في أفانين القول؛ فيكون بذلك رافداً أساسياً للتطوُّر الدَّلالي[٥٥].

وللمجاز أثر فاعل وأهمية بالغة تكمن في أنه وسيلة مهمة من وسائل التوسُّع اللغوي؛ إذ يثري اللغة، ويشي بطواعيتها ومرونتها، ويعالج مواطن الخلل، ويسُدُّ جوانب النقص في الألفاظ والتراكيب المحدودة، ومن خلاله يصبح للَّفظة معانٍ جديدة، وتتجدَّد حياة الألفاظ وينتفي عنها الخمول والرَّتابة؛ فتتوالد الألفاظ، وتتجدَّد المعاني؛ إذ ((يُعدلُ إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة؛ هي: الاتِّساع، والتوكيد، والتشبيه))[٥٦]؛ إذ قد نطلق كلمة «شمس» مثلاً في تراكيب معينة لمعانٍ خاصة عالية؛ فنقولُ مثلاً: «ظهرت شمس الحقيقة»، ونريد بها الاستبانة والوضوح التامُّ، ونقول: «رأيتُ شمساً تتأوَّد بين الفتيات»، ونريد بها الوجه

المليح وغاية الجمال[٥٧]!. وقال تعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [سورة يوسف: ٨٢]؛ فالاتِّساع فيه أنهم ٱستعملوا لفظ السُّؤال مع ما لا يصحُّ في الحقيقة سؤاله، والتشبيه أنهم شبَّهوا القرية والعير بمن يصحُّ سؤاله، والتوكيد أنهم أحالوا السُّؤال على من ليس من عادته الإجابة؛ فكأنهم ضمنوا لأبيهم أنه إن سأل الجمادات والجِمَال؛ أنبأته بصحة قولهم، وهذا تناهٍ في تصحيح الخبر[٥٨]!. فالمجاز يُهيِّئ الألفاظ لاستيعاب المدلولات الجديدة من دون ما حاجة إلى ٱستحداث ألفاظ جديدة لها قد تؤدي إلى إرباك الرصيد اللغوي وإرهاق الجهد الذاكري.

((فالمجاز طريق من طرق التوليد في النظام اللغوي. فما دام اللفظ الحقيقيُّ لا يُمكنه التعبير عن كلِّ أغراض المُجتمع؛ ٱحتيج إلى هذا التوليد المُتمثِّل في الدَّلالة المجازية. ثم إن نظام اللغة يتمدَّد عبر المكان والزمان؛ ليوائم كلَّ التحوُّلات والتغيُّرات التي تطرأ على بنية المُجتمع؛ فيُعبِّر من خلاله عن حاجاته اللغوية، أو النفسية، أو الاجتماعية، أو الثقافية؛ وذلك بخلق أنظمة إبلاغية جديدة ما تلبث أن تصبح محلَّ تعارفٍ وٱصطلاح بين أفراد المُجتمع اللغوي))[٥٩].

وما دام الأمر كذلك؛ فقد ٱنعقدتْ آراء العلماء على أن هذه اللغة لم تتَّسع لمعاني القرآن الكريم وموضوعاته المتشعبة؛ وإنما كان المجاز هو سبيل اتساعها. وهذا هو حال العديد من الكلمات العربية في العصر الجاهليِّ التي ٱنتقلتْ عن طريق المجاز إلى معانٍ جديدة منحتْها مدلولاتٍ قرآنيةً مضافةً إلى مدلولاتها الجاهلية؛ مثل كلمات: «الإسلام»، و«الإيمان»، و«الكفر»، و«الفُسُوق»، و«الفاحشة»، و«الزُّور»، و«الجِبْت»، و«الطاغوت»، و«الهُدى»، و«الضَّلال»، و«التقوى»، و«المغفرة»، و«النعيم»، و«الرِّسالة»، و«الشهادة»، و«الرُّكُوع»، و«السُّجُود»، و«المعروف»، و«المُنكر»، و«الجاهلية»، و«النفاق»، و«التيمُّم»، و«الصَّلاة»، و«الزكاة»، و«الصَّوم»، و«الحجِّ»، و«الرِّبا»،

و«الجزيـــة»، و«الأنفـــال»، و«الفَيْء»، و«العِدَّة»، و«السَّاعة»، و«البعـــث»، و«القيامـة»، و«الجنـــة»، و«النـــار»، و«الصِّراط»... إلخ[٦٠].

فبعد أن تعارف العرب في الجاهلية على لغة تداولوها في شعرهم ونثرهم، وعلى ألفـــاظ تناقلوها في كلامهـــم وتخاطبهم؛ جاء الإسلام وقلب الحال التي كانت عليها تلك اللغـة وأهلها؛ فـ((طرح الدِّينُ الجديدُ مفاهيم جديدة، ومُصطلحاتٍ مُحدثـــة، وغيَّر كثيراً من دلالات الألفاظ ومعانيهـــا؛ إذ خرجتْ جُملةٌ من مفردات اللغـــة من معانيهـــا الحقيقية إلى معان مجازية لم يألف مثلَها العربيُّ في جاهليته))[٦١]، ونزل القرآن فأمدَّ العرب ((بما لا عهد لهم به من العلم الشيء الكثير... فتكاثرت المُصطلحات الجديدة، وعبَّ عبابها؛ فتمطت اللغة عند ذاك، وفتحتْ صدرها الرَّحْبَ لضمِّ تلك المُصطلحات بمعانيها الجديدة... وليس معنى هذا أن تلك المُصطلحات كلَّها ارتُجلت ارتجالاً، وابتُدعت ابتداعاً؛ وإنما جلُّها معانٍ جديدةٌ نُقلتْ إليها ألفاظٌ من اللغة كانت مُستعملة في معانٍ أخرى تتناسب مع المعاني الشرعية))[٦٢].

وبذا غدت اللغة العربية ذات صباح وقد ((تجرَّد كثير من الألفاظ العربية من معانيها القديمـة، وأصبحت تدلُّ على معان جديدة خاصـة تتصل بالعبادات والشعائر، أو شؤون السياسة والإدارة والحرب، أو مُصطلحـــات العُلُـــوم والفنون))[٦٣]، وصار الناس يستعملون كثيراً من مفردات القرآن الكريم بمعانٍ جديدة إلى الحدِّ الذي أضحت معـه معاني بعض تلك المفردات غير مألوفة فيما بعدُ!.

ذلك أن التغيُّر والتحـوُّل الدَّلالي ظاهرة طبيعية يمكن رصدهـا بوضوح في النظام اللغوي، تغدو الكلمة معـــه ذات مفهوم أساسي جديد، وقد يحدث أن ينزاح هذا المفهوم ليحل محله مفهوم آخر. وهكذا يستمر التطوُّر الدَّلالي في حركة دائبة تتميز بالبطء والخفاء. ويشرح لنا «پيير جيرو» ذلك بقولـه: ((يتغير المعنى؛ لأننا نعطي اسماً عن عمد لمفهوم ما من أجل غايات إدراكية أو تعبيرية. إننا

نسمي الأشياء ويتغيَّر المعنى؛ لأن إحدى المشتركات الثانوية -معنىً سياقي، قيمة تعبيرية، قيمة اجتماعية -تنزلق تدريجياً إلى المعنى الأساسي وتحلُّ محلَّه؛ فيتطوَّر المعنى))[٦٤].

وهنا قد يرد إشكال حول استعمال المجاز، فهل ضاقت اللغة ذرعاً عن رسم الصورة الفنية للشكل أو المضمون بالاستعمال الحقيقي حتى عمدت إلى الصيغ المجازية؟!. والجواب: كلا وحاشا!. وكيف يستقيم ذلك مع العلم بـ((أن أكثر اللغة مع تأمُّله مجاز لا حقيقة))[٦٥]؟!. غاية ما في الأمر أنه يتأتى باستعمال الصور المجازية من الانتقال بذهن السامع إلى آفاق جديدة رحبة فيها ما فيها من دقة التصوير وروعة البيان ما لا يتأتى بالاستعمال الحقيقي، وهذا يعني القيام بعملية تجديد وتطوير وإنعاش لأسلوب اللغة، وحسبنا مجازات القرآن على ذلك شاهداً ودليلاً[٦٦]؛ فقد ألَّف الشريف الرَّضيُّ كتابه «تلخيص البيان في مجازات القرآن»، متناولاً ما ورد فيه من التعبيرات التي عُدل فيها عن الأساليب الحقيقية إلى الصيغ المجازية التي أتت على الحقيقة وكادت تغلبها.

لقد جاء البيان القرآني الفريد بكلماته الإفرادية من معدن ما كان دارجاً على ألسنة العرب إبَّان نزول الوحي الحكيم: صورة ومدلولاً ودلالة، ولم يُسقِطْ عليهم مفرداتٍ لم تكن قد طرقتْ آذانهم من قبل، ولم تكن ألسنتهم قد نطقتها واعتادتها ومرنت عليها؛ وإلا لقالوا: ما هذا بلساننا، فأنى لنا أن نفهم عنه؟!. وما جاء به القرآن الكريم من مدلولات إسلامية لبعض مفرداته؛ كالصَّلاة، والزكاة، والصَّوم، والحجِّ، وغيرها؛ فإنما نسلها من المدلولات التي كانت ساكنة ألسنتهم في أشعارهم وخطبهم.

إنَّ غالبية أرومات الألفاظ العربية قد أُبدِعَتْ في عهودٍ سحيقة اقتباساً من أشياء وأحداثٍ محسوسة، أو انفعالاتٍ هَيَجَانية فطرية، وحينما كان ينتابُ العربيَّ شعورٌ بالحاجة إلى التعبير عن معانٍ معنوية مُجرَّدة في مراحل ثقافية واجتماعية متطوِّرة لاحقة؛ كان يجدُ نفسه مُضطرَّاً إلى البحث عن اللفظة المناسبة وانتقائها بدقَّةٍ

من بين ما في يديه من المخزون اللفظيِّ الهائل ممَّا يتوافر فيها رابطةٌ ما بين الوظيفة المحسوسة للَّفظة وبين الوظيفة الذهنية للمعنى المُجرَّد المُراد؛ كما في عبارة: «عقل البعير»؛ بمعنى: ربطه بالعقال، وهذا هو المعنى الطبيعيُّ الحسِّيُّ. و«عقل الأشياء»: أدركها على حقيقتها وماهيَّتها، وهذا هو المعنى الذهني!.

وهكذا نرى أنَّ الرابطة الذهنية بين المعنيين تتجلَّى في التماثل بين وظيفة العقال في ربط البعير في موضعه، وبين وظيفة العقل في ربط الأشياء بحقائقها؛ فالرَّبطُ إذاً هو العامل المشترك بين العقل المُجرَّد والعِقال المحسوس، وما أصدقه من حَدَسٍ فلسفيّ!.

وكما في عبارة: «غفر الشيء والمتاع»: ستره وغطَّاه، و«غفر الذنب»: أزاله ومحا أثره. واللغة العربية-بَلْهَ القرآنُ الكريم- ملأى بأمثال هذه الشواهد. فمن النُّدرة بمكانٍ أن نجد معنىً مُجرَّداً غير مُستنبطٍ من معنىً حسِّيٍّ تمتدُّ بينهما جسورٌ من الوشائج والصِّلات المُتمثِّلة بالاشتراك أو التلاقي في المعنى والمدلول[٦٧].

وإذا كان المجاز واحداً من الأساليب العربية المتداولة؛ فلا غرو أن يحذو القرآن الكريم الحذو نفسه؛ فيشيع هذا الأسلوب العالي في آياته البينات؛ فيكون المجاز ((ظاهرة قرآنية، وهي لم تأت ببدع من المعاني التي لا صلة للعرب بها؛ وإنما كانت امتداداً لمعان مادية محسوسة يألفونها إلى معان مُجرَّدة، وكلا المعنيين أو المعاني فروع لأصل واحد... إنَّ المعنى الذي تنتقل عنه اللفظة القرآنية إلى مدلول آخر لا يزول ولا ينسخ؛ وإنما تبقى له وشائجه التي ترتبط من خلالها بالمدلول الجديد الذي نصطلح عليه بـ«المدلول المجازي»))[٦٨].

ويقرر الدكتور كامل حسن البصير بأنَّ القرآن الكريم كان بارعاً في اتخاذ ((البيئة العربية أساساً اعتمدته ألفاظٌ من آياته البينات لارتداء مدلولاتٍ مجازية تهزُّ مشاعرَ العربيِّ الذي ترعرع بين أحضان هذه البيئة، وتأثر عقلُه بألوان مظاهرها... ومن هذه الألفاظ: مادَّة «زكا» ومشتقاتها. فما عسى أن تكون المعاني التي تقلَّبتْ عليها هذه المادَّة في المعجم العربيّ؟!.

... إنَّ إيتاء الزكاة هو ثاني ثلاثة سُبُل إلى رحمة الله تعالى وجنَّته[٦٩]، وإذا عُدْنا بالذاكرة إلى معاني «زكا» العربية الجاهلية التي ترسَّختْ في البيئة العربية؛ أدركْنا عبقرية مدلول هذه الكلمة المجازيِّ، وعُمق تأثيره في النفس. فالعربيُّ يعلم لمادَّة «زكا» معاني الزيادة والنماء في الزرع، فإذا دفع ذلك النصاب ضريبة سمَّاها القرآنُ «الزكاة»؛ وقع في وجدانه أنَّ ما يدفعه لا يذهب هباءً؛ وإنما يزداد وينمو كما يزداد الزرع وينمو، وهذه العلاقة البيئية تخلع على المدلول المجازيِّ اللونَ الأخضرَ، والرائحة الطيبة، والطعم اللذيذ. ثمَّ إنَّ إيتاء الزكاة يسير بصاحبه إلى الجنة، والجنة تنهض في الآخرة على الزرع والخضرة من بين ما تنهض عليه! وهكذا لا يجدُ العربيُّ المسلم القادر بُدَّاً من نفسه وشعوره من أن يُؤتي الزكاة وهو طيِّبُ الخاطر، مسرورُ الفؤاد!.

... إنَّ المعجم القرآنيَّ غنيٌّ بصيغ مادَّة «زكا» التي تضرب بمعانيها في العقل العربيِّ مُستمدَّة جذورها من بيئته؛ فتشدَّه إلى النهوض بواجبٍ دُنيويٍّ هو عصب الحياة الاقتصاديـة المُنظَّمة في المُجتمع الإسلامي؛ ذلك هو إيتاء الزكاة فضلة عن أموال الأغنياء إلى الفقراء؛ فيلتقي الفريقان إخوة تحت راية المُساواة والعدالة الاجتماعية))[٧٠].

وغيرُ بعيدٍ عن مُصطلح «الزكـاة»؛ فـ((إنَّ وُرُود مُصطلح «الرُّكوع» في القرآن الكريم بمدلولاته اللغوية قد أشعر المسلمين بضعفهم وذلَّتهم بين يدي الله عز وجل وهم يركعون في صلواتهم. وممَّا يُقوِّي هذا الشعورَ فعلُ الرُّكوع وحركته؛ فإذا العربيُّ المُتكبِّر قبل إسلامه، المُتجبِّر في جاهليته يركع لله تعالى ويقول: «إنني أركع»؛ فتثير هذه الكلمة في عقله مخزون مدلولاتها الجاهلية؛ فيتصوَّر أنه ضعيف، مُنكبٌّ على وجهه، مُنحني الظهر، يتوجَّه إلى الله سبحانه!. ثمَّ يُبيِّن له رسولُ الله ﷺ مدلول الرُّكوع، وأنه حركة من حركات الصَّلاة؛ فيَهَشُّ إليه، ويستقرُّ عليه، مُطهِّراً نفسـه من شوائب الغرور والاعتداد بالذات.

... وهكذا غدتْ مادَّة الركوع تستمدُّ من المدلول المجازيِّ الإسلاميِّ دلالتها؛

فهي تدلُّ -من بين ما تدلُّ عليه -على الحركة المخصوصة في الشرع؛ على أن تكون دلالتها مُشعَّةً بظلالٍ من مدلولات المادَّة العربية؛ فلا تفيد كلمة «اركعوا» أمراً بأداء حركة الرُّكوع الآلية، ولا تصوِّر كلمة «الراكعين» جماعة المُسلمين مُلبِّين هذا الأمر تلبية ظاهرية؛ وإنما يُفيدُ الأمرُ طلبَ حركةٍ مخصوصة مع خضوعٍ وانقياد وذلَّة، وتصوِّر كلمة «الراكعين» جماعة المسلمين مُلبِّين هذا الأمر في خضوعٍ وانقيادٍ وذلَّةٍ بين يدي الله خالِقِهم وخالِقِ كلِّ شيء. والدَّليل على ذلك هو أنَّ كلمتي «اركعوا»، و«الراكعين» قد جاءتا بعد الأمر بإقامة الصَّلاة مُخصَّصتين إيَّاه، جرياً على أُسلوب القرآن الكريم في مواضع كثيرة بذكر الخاصِّ بعد العام؛ تمييزاً لهذا الخاصِّ، وتنويهاً به على أنَّ الرُّكوع من أركان فريضة الصَّلاة التي ليست في حقيقتها مجموعة أقوالٍ وأفعالٍ شكلية فحَسْبُ؛ بلْ هي -مع ذلك كلِّه- تطهيرٌ للنفس ممَّا يجعلُ الإنسانَ مغروراً مُتكبِّراً))[٧١].

وقوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [سورة الشورى: ١٣]؛ فـ((ممَّا لا جدالَ فيه أنَّ الإسلام دينٌ أقرَّه الله سبحانه وتعالى للناس أجمعين، وسيَّره في البيئات كلِّها، وخلَّده على الأزمنة كافة. ومن هنا؛ فإنَّ أُسُس مجازات كتابه العظيم لم تقتصر على نفسٍ دُون أُخرى، ولم تنحصرْ في حواسّ وتبتعد عن حواسّ غيرها، ولم تتلوَّنْ ببيئةٍ وتُعرِض عن سواها؛ وإنما ضمَّتْ إلى عددها أساساً عاماً؛ وهو الحياة بأوسع معانيها؛ فكان هذا الأساسُ الحيويُّ منبتاً حسناً نبتتْ فيه مجازاتٌ دلالية عديدة، منها: كلمة «الشريعة».

... إنَّ صيغة الفعل هنا مجازٌ دلاليٌّ لا يُرادُ بها معانيها الجاهلية؛ وإنما يُرادُ بها تنزيلُ أُصُول الأديان التي جاءت خيراً للإنسان منذ أيام نوحٍ عليه السلام، وما يزال خيرُها حتى تمَّ على يدي الرسول الكريم مُحمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، عقيدة تجمع الناس أجمعين، وتهبهم طريقاً للحياة السعيدة في الدُّنيا، وصراطاً للحياة الخالدة في الآخرة.

والعربيُّ حين يسمع هذه الآية؛ تتفجَّر في عقله المعاني القديمة لهذه الصيغة؛ فيروحُ يُوازن بينها وبين هذا المدلول الجديد؛ فيتمثَّل الدِّينَ ينبوعَ ماءٍ لأوَّل وَهْلة، ثمَّ يُمعِنُ في عظمة هذا الدِّين؛ فيراه ماءً لا كالماء، وحياة لا كالحياة؛ وذلك لأنه كان يعرف الماء من خلال مادَّة «ش ر ع»، ويُدرك الحياة التي تنتج عن هذا الماء!.

وإذا كانت مشيئة الله عز وجل قد اختارتْ من هذه المادَّة فعلاً لتصوير تنزيل الأديان وإظهارها؛ فإنَّ التالي لها- ولأخدانها من آي الذكر الحكيم -يُؤمنُ بداهة وبالموازنة أنَّ هذا المنزل المظهر المشروع خيرٌ من الماء طريقاً، وأحسنُ منه ثمرة!!. إنها العبقرية اللغوية التي اتسمتْ بها لغة القرآن الكريم تنفتح في هذا المجاز الدَّلالي على هذا المدلول وأكثر من هذا المدلول الذي نحسُّ به ونعجز عن إبرازه على الرغم من كلِّ ما نحاول!.

ومهما يكُنْ من أمرٍ؛ فإنَّ رحلتنا مع مادَّة «ش ر ع» وتقلُّب الصِّيغ منها في اللغة العربية، ووُرُود بعضها في آي الذكر الحكيم تنتهي بنا إلى أنَّ المدلول المجازيَّ الذي يشيع من هذه المادَّة خلال الكلمات القرآنية «شرع»، و«شريعة»، و«شِرْعة» يعتمد الحياة أساساً لهذه الصُّورة الرائعة التي يتمثَّلها الإنسانُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وهو يُوازي بين هذا المدلول والمعاني العربية للمادَّة؛ فإذا الماءُ الدافق -رمز الحياة -يتبادر إلى ذهنه حين يعلم بأنَّ الدِّين الإسلاميَّ قد اتخذ من تلك الكلمات سبيلاً للدلالة على أنظمته وقوانينه التي يُشرِّعُها لحفظ المُجتمعات الإنسانية، ودوام سعادتها في الدُّنيا والآخرة!.))[٧٢].

وما قيل عن الموادِّ: «ر ك ع»، و«ز ك و»، و«ش ر ع» يصلُحُ للقول عن عشرات الموادِّ القرآنية الأخرى. فـ((معاني الألفاظ التي كانت مستخدمة في العصر الجاهلي لم تبق جامدة على حالها في الإسلام؛ بل لحقها تغير قليل أو كثير... وهذا ما أُحدث في العصور التالية أيضاً؛ نتيجة تطوُّر المُجتمعات، والحاجة إلى التجديد وإضفاء معانٍ جديدة على كلمات قديمة؛ وفاءً بحاجات الحياة المُتطوِّرة))[٧٣]؛ فكما كان للقرآن المجيد

التأثير الواضح في معاني اللغة العربية من جانب ما جاء به العربَ من اشتراع جديد لم يكن لهم به سابقُ عهدٍ؛ فقد كان له كذلك بالغ الـ((أثر في خلق معان جديدة تتناول معانيهم التي كانوا يتعاورونها فيما بينهم؛ فتصرَّف فيها وهذَّبها، وزاد فيها أو نقص منها، ووضعها مواضع تناسبها؛ بحيث أصبحت تلائم كلَّ الأذواق في كلِّ العصور، بعد أن كان فيها ما لا يسمح لها بالبقاء إلا في عصر جاهلي له ذوق خاص))[٧٤].

المبحث الثالث:
نماذج تطبيقية من الصور المجازية في القرآن الكريم:

تعدُّ الصُّور المجازية باباً فسيحاً مشرعاً من أبواب التحوُّل الدَّلالي[٧٥]؛ إذ خرج القرآن الكريم في أسلوبه الفذ المُصوَّر بتلك الصُّور المُوحية من نطاق الدَّلالة المعجمية للألفاظ؛ كونها دلالة سكونية جامدة، وتخطَّاها إلى الولوج في عالم فسيح من الدَّلالة الإيحائية ليس له حدود؛ ((ومن هنا يكتسب اللفظ معاني جديدة ولم يعُدْ يعني لغته الأولى. لقد انزاح عن مستواه واكتسب في هذا التركيب دلالة أخرى، أنتج لغة أخرى))[٧٦].

وحرية النص القرآني تكمن في التوظيف الإيحائي الذي يمنح الصورة وجهاً جديداً براقاً؛ إذ يتحرَّر من دلالات الأشياء كما هي في الواقع العلمي، ويجعلها ذات دلالات جديدة. وعندها يستحق لقب «المُعجِز» بالمعنى الأعمِّ الأكمل؛ وإنما تأتَّى له ذلك عبر الولوج إلى عالم البلاغة بسماتها الحقيقية وركائزها الصُّلبة[٧٧].

وقد تنتقل الدَّلالة بحكم المجاز من الخصوص إلى العموم، وقد تنتقل أيضاً المعنى المادي إلى معنىً مُجرَّد؛ ففي لفظ «الطريق» مثلاً يقول الراغب في معرض بيانه لقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ [سورة طه: ٧٧]: ((«الطريق»: السبيل الذي يطرق بالأرجل؛ أي: يضرب))[٧٨]، ثمَّ تعقب اللفظة واستعمالاتها في لغة العرب؛ فخلص إلى القول: ((وعنه استُعير كلُّ مسلكٍ يسلُكُهُ الإنسانُ في فعلٍ؛ محموداً

كان ذلك الفعل أو مذمومـــاً))[٧٩]، واستشهد لذلك بقوله عز وجل: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾ [سورة طه: ٦٣]، وقوله جل جلاله: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [سورة الاحقـــاف: ٣٣].

فلفظـــة «الطريـــق» تعني: السبيل المسلوكة بغية الوصول إلى المكان المحدَّد، تلك هي دلالتها الحقيقية الخاصة، والدليل على ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [سورة التوبة: ٦٠] ؛ وهو المسافر البعيد عن منزله، نسب إلى الطريق؛ لممارسته إياها[٨٠]، وقوله عز وجل: ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ ﴾ [سورة النساء: ٤٣]. إلا أن دلالتها قد تطوَّرت عن طريق الاستعارة، وغدت عامة تدلُّ على كل ما يسلكه الإنسان ليتوصل به إلى شيء ما أو مكان محدَّد؛ خيراً كان ذلك الشيء أو المكان، أو شراً[٨١].

ولفظة أخرى سلكت ذات السبيل؛ هي لفظة «الوادي» الواردة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ [سورة طه: ١٢]، وأصل الوادي: الموضع الذي يسيل فيه الماء، وجمعُهُ: أودية، ووديان[٨٢]؛ بَيْدَ أن تلك اللفظة -كأخدانٍ لها كثيرة-قد انتقلت دلالتها عن طريق المجاز إلى حقل آخر؛ إذ ((يُستعار «الوادي» للطريقة، كالمذهب والأسلوب؛ فيقال: «فلان في وادٍ غير واديك»))[٨٣]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴾ [سورة الشعـــراء: ٢٢٥]؛ من أساليب الكلام من المـــدح، والهجـاء، والجدل، والغـــزل، والرثـاء[٨٤]، ومن ذلك قول الشاعر[٨٥]:

إذا ما قطعنا وادياً مِنْ حديثنا
إلى غيرِهِ؛ زِدْنا الأحاديثَ واديا

ومن ذلك أيضـــاً: لفظ «الوِرْد»، و«الوُرُود» في قولـــه تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ ﴾ [ســـورة القصص: ٢٣]؛ أي: بلغه، فأصل الوُرُود: قصـــد الماء، ثم يستعمـل في غيره اتساعاً[٨٦]، قال السُّيوطيُّ: ((أصل «الوِرْد»: إتيان الماء،

ثم صار إتيان كلِّ شيء وِرْداً))[٨٧]؛ كما في قوله سبحانه: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [سورة مريم: ٨٦]، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [سورة الانبياء: ٩٨]، وقوله جل جلاله: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [سورة هود: ٩٨].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة الحديد: ٢٥]، قال الراغب: ((و«الحديد» معروفٌ... وحدَدْتُ السِّكِّينَ: رققت حدَّه، وأحددته: جعلتُ له حدّاً))[٨٨]، وقال ابن منظور: ((و«الحديد»: هذا الجوهر المعروف؛ لأنه منيع... وحدَّ السيفَ والسِّكِّينَ وكلَّ كليلٍ، يحُدُّها حدّاً، وأحدَّها إحْداداً، وحدَّدها: شحذها ومسحها بحَجَرٍ أو مِبْرد))[٨٩]، هذا هو المعنى المادي، ((ثم يقال لكلِّ ما دقَّ في نفسه من حيث الخلقة، أو من حيث المعنى؛ كالبصر والبصيرة: حديد؛ فيقال: هو حديد النظر، وحديد الفهم. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[٩٠] [سورة ق: ٢٢]. ويقال: لسانٌ حديدٌ، نحو: لسانٌ صارمٌ، وماضٍ؛ وذلك إذا كان يُؤثِّر تأثير الحديد. قال سبحانه تعالى: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [سورة الاحزاب: ١٩]))[٩١]، و«البصر» في الآية الكريمة هو قوّة القلب المُدرِكة.

فلفظة «الحديد» تدلُّ في أصل وضعها اللغويِّ على المعدن الصُّلب المنيع على وجه الخصوص. ومن ثم انتقلت تلك الدَّلالة وتطوَّرت بفعل عوامل عديدة إلى معنىً عام؛ فغدت تدلُّ على كلِّ ما دقَّ في نفسه. وهذا انتقال نوعي من تخصيصها بالمعنى المادي إلى التعميم والدَّلالة على المعاني المُجرَّدة[٩٢].

وقوله عز وجل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [سورة الشورى: ٢٠]، و((«الحَرْث» في الأصل: إلقاءُ البذر في الأرض، يطلق على الزرع الحاصل منه، ويستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها

بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الأعمال؛ أي: من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة))[٩٣].

وقد تطرَّق أربابُ المُعجمات اللغوية إلى أصل معنى «الحرث» في اللغة الذي هو إلقاء البذر في الأرض؛ ابتغاء الثمر[٩٤]، وهو معنىً حسي؛ إذ إن إلقاء البذر في الأرض مما يرى بالعين، وقد انتقلت هذه الدَّلالة إلى معنى مُجرَّد؛ وهو دلالتها على ثمرات الأعمال التي يؤديها العبد في حياته؛ ابتغاء الثواب. فالاستعارة هنا كانت الوسيلة لنقل المعنى من المجال المادِّيِّ المحسوس؛ وهو كسب ثمرة ما تمَّ بذره في الأرض من محصول للأكل، إلى المجال المعنويِّ المجرَّد؛ وهو نيل العبد الأجر والثواب في الآخرة لقاء إحسانه وعمله الصالح.

وقد تنعكس الآية فينتقل اللفظ من المعنى المجرَّد إلى المجال الحسي؛ كما في لفظ «الرَّبِّ» في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة غافر: ٦٥]، و«الرَّبُّ» في الأصل بمعنى: التربية؛ وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً. وقيل: هي صفة مُشبَّهة من: «ربَّه يربُّه»، مثل: «نمَّ عليه ينمُّ»، سمي به المالك؛ لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه، ولا يطلق على غيره عز وجل إلا مقيداً؛ كـ«ربِّ الدار»، و«ربِّ الدَّابَّة»[٩٥]؛ كقوله عز وجل: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [سورة يوسف: ٤١]. فالأصل في هذه اللفظة معنوي؛ وهو التربية والإنماء، وقد تنتقل إلى معنى حسي؛ وذلك عند إطلاقها على المالك الذي يتولى شؤون من يربيهم أو يملكهم، ثم أطلقت كلمة «الرب» على الخالق سبحانه.

ولفظة «الرَّبِّ» في اللغة لها معان متعدِّدة، منها: التربية، والتنشئة، والإنماء، و«الرَّبِّ» هو السَّيِّد، والحاكم، والمالك، والخالق، والصاحب، والمُصلح...[٩٦]، وهذا يعني أن لفظة «الرَّبِّ» لم يكن لها أصل واحد في اللغة[٩٧].

ويطالعنا الخطيب الإسكافي حول لفظة «السُّلطان» في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة هود: ٩٦]، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [سورة القصص: ٣٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا﴾ [سورة الاسراء: ٣٣]، وما دلت عليه من معان نُسلت من أصلها اللغوي؛ فأنها مأخوذة من السَّليط؛ وهو الزيت الذي يضاء به السِّراج، و«السُّلطان»: الحجة؛ لأنها تضيء فيستبين بنورها الحق من الباطل، و«السُّلطان»: من يملك للناس ضياءً يدفع به عنهم ظلام الظلمة؛ إذ لولاه لآلوا من التغاور والتناهب إلى ظلام يتزايد ولا يتناقص؛ فصار بذلك كأنه ضياء يجلو عن رعيته ظلام الدنيا[٩٨]، وفي هذا المعنى يقول ابن منظور: ((و«السُّلطان» إنما سُمِّي سلطاناً؛ لأنه حجَّة الله في أرضه... و«السَّليط»: ما يُضاء به؛ ومن هذا قيل للزيت: سليط))[٩٩]، قال النابغة الجعدي[١٠٠]:

يُضيءُ كضوءِ سِرَاجِ السَّلِيـ
ـطِ لم يَجعلِ اللهُ فيه نُحاسا

وختاماً، فإنَّ العلاقة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه في الأمثلة أعلاه جلية؛ فلا يمكن تصوُّر ظاهرة المجاز على أنها دلالة جديدة تنفصم كلياً عن الدَّلالة الأصلية؛ وإنما يبقى المجال الدَّلالي للَّفظ المجازيِّ مُحتفظاً بخيطٍ مهما دقَّ يربطه بالمجال الدَّلالي للَّفظ الحقيقيِّ؛ بحكم أن كلَّ التحوُّلات داخل النظام اللغويِّ تبقى معقودة بنمطٍ تواصليٍّ وثيقٍ يربط بينها[١٠١].

ذلك هو نصُّ القرآن الكريم ووحي الرَّحمن الرحيم في تصويره الأحياءَ والأشياءَ والتعامل الفذِّ معها؛ فهو ما فتئ يهتف في الآذان ما. يزلزل الكيان، ويخلع العقول والأبدان! ولا غرو؛ فهو من السُّمُوِّ والإعجاز بحيث إذا شاء أرانا المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جُسِّمَتْ حتى رأتها العيون، وإن شاء لطَّف لنا الأوصافَ الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون[١٠٢]!.

فأيُّ لغة وأيُّ معجم لُغويٍّ له القدرة على أن يُحدث هذه الثورة الدلالية التي أحدثها القرآن الكريم؛ فأنتج في أمثال الآية أعلاه دلالات تخطَّى بها حدود اللغة نفسها وخرج على قوانينها، وعمد إلى ألفاظها؛ فاستعملها استعمالاً جمالياً فنياً،

وتعامل معها تعامل المُستهلك والمُنتج؛ فاستهلك طاقاتها الدَّلالية كلها، وأنتجها إنتاجاً فريداً تنبعث من جنباته هواتف الوحي الإلهي المعجز؛ فجاءت الألفاظ في سياقاته محفورة، منحوتة، قد مُلئت دلالة وإيحاءً!.

الخاتمـــــــة:

وختاماً، وبعد تلك الرحلة البحثية الدلالية الشيقة؛ فإني أرى لزاماً عليَّ أن أوجز ما بسطته وأطوي ما نشرتــه في صحائف هذا البحث من حقائق جديرة بالنظر والتدبر لكلِّ من ألقى السمع وهو شهيد؛ فأقول:

- لا تقتصر الحيـاة بمفهومها الواسع على الكائنات التي تدُّب على سطح هذه البسيطة وتروح عليها وتغدو؛ بلْ تتعدَّاها إلى مفهوم أعمَّ وأشمل لتكتنف كثيراً من الظواهر التي يتعامل بها الأحياء فيما بينهم ويتوسلون بها لتيسير سبل التواصل والتفاهم وإشاعتها في أوساطهم؛ ككثير من الظواهر الاجتماعية، واللغــة واحدة من أبرز تلك الظواهر التي تدبُّ فيها الحياة دبيباً، وحياتها قائمة على ألسنة المتكلمين بهـا؛ فتتطوَّر على الدوام وتتغيَّر بفعل الزمن كما يتطوَّر الكائن الحي المتكلِّم بها ويتغيَّر، وتخضع لما يخضع له في نشأته ونموِّه وتطوُّره.
- إن نواميس الحياة وقوانينها وسُننها التي يخضع لها الأحياء تخضع لها اللغة كذلك؛ بعدِّها واحداً من تلك الأحياء التي تدبُّ على ظهر هذه البسيطة؛ وبذا تعيش اللغة حياتها كالكائنات الحية الأخرى تماماً: تتغير، وتتطور، وتنمو مع نموِّ الفكر وتقدُّم الزمن وتقلُّب المُجتمع الذي نشأت وترعرعت بين أكنافه؛ وهي لذلك تعدُّ المرآة الناصعة والصادقة والأمينة التي تنعكس عليها ظروفه، متفاعلة معه، مشاركـة في صنعه وتوجيه حياته.
- امتازت اللغة العربيـــــة عن سائر اللغات الأخرى من جملة ما امتازت به أنها لم تُصَب بتطوُّر كبير يذهب بصفاتها الأصلية، ويعفي على آثارها؛ لذلك رأينا كثيراً من خصائصهـــا باقية شاخصة فيها؛ على الرغم من

خروجها من الجزيرة، واختلاطها بلغات عالمية شتى؛ وذلك عائد إلى قوة شخصيتها، وإلى ارتباطها بنصوص فصيحة منقولة عن عهد السَّجية والسَّليقة، فضلاً عن تشبُّثها بنصوص الوحي الحكيم واستمساكها بعراه الوثيقة؛ فخرجت من بين تلك المخاضات العسيرة وقد حافظت على قالبها الرئيس الذي صُبَّتْ فيه أولاً، واحتفظت بملامحها، وسلمت لها سماتها الأساسية التي ارتسمت بها واتسمت.

- صاغ القرآن الكريم اللغة العربية من واقع ما كان يتحدث به الناس في حياتهم؛ إذ فوجئ به الناس ذات صباحٍ يتلى عليهم، فيه من الدلالات، والاشتقاقات، والتراكيب الجديدة ما لم يخطر لهم على بال في نظمٍ فريد، تحدَّاهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.
- يتغيَّر مدلول الكلمة في اللغة ويتحوَّل على الدوام تبعاً للحالات التي يكون فيها استخدامها؛ إذ يُعدُّ الاستخدام العُرفي واحداً من أكثر العوامل تأثيراً في التطوُّر والتحوُّل الدَّلالي، وفي توجيه دلالات ألفاظ اللغة.
- تنزع المنظومة اللغوية على الدوام نحو التمدُّد والتغيُّر اللازمين لتغطية مجمل الحاجات اللغوية في أحوالها المختلفة؛ لذا استقر في أذهان العلماء أن محاولة الإبقاء على معنىً من المعاني جامداً من دون إخضاعه لعوامل التغيُّر الدَّلالي تُعدُّ ضرباً من النمطية التي يأباها النظام اللغوي المُتجدِّد.
- تزيل كثرة استخدام العامِّ في بعض ما يدلُّ عليه مع تقادم العهد عموم معناه، وتقصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله. وبالمقابل؛ تُزيل كثرة استخدام الخاص في معانٍ عامة عن طريق التوسُّع مع تقادم العهد خصوص معناه، وتكسبه صفة العموم.
- أشاع القرآن الكريم في اللغة أصفى ألفاظها جرساً، وأدقها تعبيراً، وأحلاها نغماً، وأبلغها دلالة، وأورد كلَّ لفظة في مكانها المناسب ببراعة

فائقة تعجز عنها الخلائق، وتخيَّر لها أجمل ما تخفُّ به نطقاً في الألسن وقرعاً للأسماع؛ حتى كأنها الماء سلاسة، والنسيم رِقَّة، والعسل حلاوة!. وهو بعدُ بالمكان الأسمى الذي أدهشهم، وحيَّر ألبابهم.

- لا يمكن تصوُّر ظاهرة المجاز في اللغة العربية والقرآن الكريم على أنها دلالة جديدة تنفصم كلياً عن الدَّلالة الأصلية؛ وإنما يبقى المجال الدَّلالي للفظ المجازيِّ مُحتفظاً بخيطٍ مهما دقَّ يربطه بالمجال الدَّلالي للفظ الحقيقي؛ بحكم أن كلَّ التحوُّلات داخل النظام اللغوي تبقى معقودة بنمطٍ تواصليٍّ وثيق يربط بينها.
- لم تقتصرْ أُسُسُ المجازات الواردة في القرآن الكريم على نفسٍ دُون أُخرى، ولم تنحصرْ في حواسَّ وتبتعد عن حواسَّ غيرها، ولم تتلوَّنْ ببيئةٍ وتُعرِض عن سواها؛ وإنما ضمَّتْ إلى عددها أساساً عاماً؛ وهو الحياة بأوسع معانيها.
- جاء البيان القرآني الفريد بكلماته الإفرادية وقوالبه المعنوية من معدن ما كان دارجاً على ألسنة العرب إبَّان نزول الوحي، ولم يُسقِطْ عليهم دلالاتٍ لم تكن قد طرقتْ آذانهم من قبلُ؛ وإلا لقالوا: ما هذا بلساننا، فأنى لنا أن نفهم عنه؟!. وما جاء به القرآن الكريم من مدلولات إسلامية لبعض مفرداته؛ كـ«الإسلام»، و«الإيمان»، و«الكفر»، و«الفُسُوق»، و«التقوى»، و«المغفرة»، و«الرُّكُوع»، و«السُّجُود»، و«الشريعة»، و«الصَّلاة»، و«الزكاة»، و«الصَّوم»، و«الحجِّ»؛ فإنما نسلها من ذات المدلولات الجاهلية التي كانت ساكنة ألسنتهم في أشعارهم وخطبهم.
- غالى فريق من اللغويين في نظره، وبالغ في نظرته، وجانب ما نطقت به الحقيقة اللغوية؛ حين قال بأن الدين الجديد قد طرح مفاهيم جديدة للألفاظ مُنبتَّة تماماً ومنقطعة عن معانيها الأصلية القديمة التي كانت مألوفة ومتداولة، وجاء العربَ بما لا عهد لهم به من قبلُ من المعاني

لذات الألفاظ التي كانوا يتداولونها ويتعاورونها فيما بينهم؛ وذلك من خلال تجريد تلك الألفاظ وأمثالها من معانيها اللغوية الأصلية القديمة العامة، واستحداث معانٍ جديدة خاصة لها.

- لم يقتصر أثر القرآن الكريم في ألفاظ اللغة العربية على استحداث دلالات جديدة لها في سياقاته الخاصة، أو التوسع في مدلولاتها، أو نقل معانيها إلى معان أخرى لأسباب تقتضيها؛ وإنما تعدَّى ذلك إلى خلق ألفاظ جديدة لم تكن معروفة في العهد الجاهلي؛ إذ وردت فيه -على نطاق محدود جداً لا يكاد يجاوز أصابع اليدين عدَّاً -ألفاظ جديدة في لفظها ومعناها، لم يألفها العربيُّ الجاهليُّ، ولم ينطق بها من قبل؛ كألفاظ: «الأُمِّيّ والأُمِّيِّين»، و«الجاهلية»، و«النفاق»، و«الجِبْت»، و«الطاغوت»، و«السُّحت»، و«الجزية»، و«البعث»، و«القرآن»، و«السورة»، و«التَّفث».
- قد تفضي كثرة الاستخدامات المجازية لبعض الألفاظ إلى اندثار معانيها اللغوية الحقيقية الأصلية التي انحدرت منها وانقراضها تماماً، واستحالتها حقائق في تلك المعاني المجازية الجديدة الحادثة التي تقمَّصتها وتلبَّست بها.
- اتخذت ألفاظ اللغة العربية والقرآن الكريم في تبديل معانيها وتوليدها وتحويلها وتطوُّرها أشكالاً ومظاهر خمسة لا سادس لها؛ فتتسامى وترقى بتلك المعاني تارة، وتجنح إلى الانحطاط بها والخفض لها أخرى، وتُوسِّع من نطاقها ثالثة بإسقاط بعض ملامحها التمييزية، وتُضيِّق ذلك النطاق رابعة بإضافة مزيد من تلك الملامح، وتنتقل بها وتزيحها من حقل دلاليٍّ إلى آخر خامسة.
- ترتبط الحالة التي تنتقل إليها الدَّلالة غالباً بالحالة التي انتقلت عنها بإحدى العلاقتين المجازيتين (المُشابهة أو المُجاورة) اللتين يُعوَّل عليهما كثيراً في تداعي المعاني بعد استدعائها؛ إذ إن حضور معنىً في الذهن يدعو إلى

الذاكرة بعض المعاني المرتبطة معه، وإنما يتمُّ ذلك عبر ما يُسمَّى بـ«المجاز» القائم على أنها تشكيلٌ لغويٌّ أساسُه التشبيه، أو الاستعارة، أو الكناية.

- العلاقة بين القرائن والمعنى طردية؛ بمعنى أنه كلَّما كثرت القرائن في النص الواحد وتنوَّعت؛ صار المعنى في سياق النص أكثر تحديداً ووضوحاً ودقة، أو كلَّما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً؛ كان المعنى الدَّلالي أكثر وضوحاً؛ إذ إن غياب المقام يؤثر تأثيراً مباشراً في فهم الكلام؛ فيجعله محتملاً لغير ما معنى.
- ينفر الناس في حياتهم العامة من المعاني الكلية والعمومية التي لا وجود لها إلا في الأذهان، ويُؤثِرون عليها الدلالات الخاصة التي تعيش معهم فيرونها ويسمعونها ويلمسونها؛ لذا يسهل عليهم تداولها والتعامل بها في حياةٍ أكثرُ ما فيها ملموس محسوس؛ فنراهم غالباً ما يعمدون إلى بعض الدلالات العامة ويستعملونها استعمالاً خاصاً.
- باتت العربية بعد الإسلام تتلمَّس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب والرِّفق في التعبير عن شئون العلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة؛ فنلفيها تهرع إلى التلميح والتورية، وتلجأ إلى المجاز في اللفظ، وتستبدل الكناية بصريح القول؛ فتقول مثلاً: قارب النساء، تغشَّى زوجته، لامس امرأته، أفضى إلى أهله، قضى وطره... إلخ. وقد كان لها بهذا الصدد في ألفاظ القرآن وعباراته المُحتشمة أسوةٌ حسنة.
- إن نمَّ التأدُّب الراقي والحشمة العالية التي نلمسُها في تعبيرات القرآن الكريم عن الألفاظ المُتعلِّقة بما يُستفحش التصريح به؛ كالجنس، والعلاقة بين الرجل والمرأة؛ فاتخذ فيها سبيل التعبير الكنائي غير الصريح ولا المباشر، إن نمَّ ذلك عن شيء؛ فإنما ينُمُّ عما كان عليه العربيُّ إبَّان نزول القرآن من حشمةٍ وأدبٍ عاليين؛ ذلك أن القرآن نزل على سَنَن العرب في الخطاب وعلى طريقتهم في نمط العيش؛ الأمر الذي سما وارتقى

بأساليب لغتهم سُمُوّاً تردَّد صداه في أرجاء ألفاظها وتراكيبها.

- كلَّما زادت الملامح التمييزية لشيء ما؛ قلَّ عدد أفراده؛ أي أن العلاقة بينهما عكسية. فهناك دلالات عامة أو كلية؛ بمعنى أنها تنطبق على كلِّ فرد من طائفة كبيرة، فإذا تحدَّدت الدَّلالة أو ضاق مجالها؛ قيل: إن اللفظ أصبح جزئياً، وقيل: إن الدَّلالة قد تخصَّصت.
- استعمل القرآن الكريم اللغة استعمالاً جمالياً فنياً؛ إذ تعامل مع الألفاظ تعامل المستهلك والمنتج؛ فاستهلك طاقاتها الدَّلالية كلها؛ فأنتجها إنتاجاً فريداً؛ فجاءت ألفاظه مشدودة دوماً إلى حفز دلالي يتناسل، وهذا التناسل الدَّلالي واحد من أجلِّ مظاهر التأثير والفن، وأسمى سبل بعث الجمال في آفاق الخطاب الإلهي، وأبرز هواتف الوحي المعجز.
- جاءت الألفاظ في السياق القرآني محفورة، منحوتة، قد ملئت دلالة وإشارة وإيحاءً؛ فليس للمتأمل فيها الحق بأن يقف عند حدود أبعادها المادية؛ فالقرآن المجيد حين استعملها لم يكن ليكتفي بتلك الدلالات المحدودة؛ فجاء متوخياً الإشباع الدَّلالي لتلك الألفاظ؛ من الصوت والمعنى الأساس، إلى الإشارة والرمز، فالمعنى العاطفي والإيحائي، وكان إخراج مدلول اللفظ والجملة من المعنى المُجرَّد إلى الصُّورة المحسوسة المُتخيَّلة واحداً من أهم الجوانب العامة التي تمتاز بها بياناته العلية.

* * * * *

الهوامش:

(١) أي: ليُنقِّر عنه، وليُفكِّر في معانيه، وليتأمَّل في هداياته، وليتدبَّر في دلالاته وإيحاءاته.

(٢) المعجم الكبير/ باب العين (عبد الله بن مسعود الهذلي رضي الله عنه)، رقم (٨٦٨٥) (٩/ ١٣٦)، وينظر: شعب الإيمان/ الباب التاسع عشر، في تعظيم القرآن (فصل في تعلُّم القرآن)، رقم (١٩٦٠) (٢/ ٣٣١)، وكنز العمال/ حرف الهمزة، الكتاب الثاني: في الأذكار من قسم الأقوال (الباب السابع: في تلاوة القرآن وفضائله/ الفصل الأول: في فضائل تلاوة القرآن)، رقم (٢٤٥٣) (١/ ٥٤٨).

(٣) في فقه اللغة وقضايا العربية/ ص٢٥١، وينظر: لحن العامة والتطور اللغوي/

ص٣٠، ومباحث لغوية/ ص٨١ -٨٤.

(٤) دلالة الألفاظ/ ص١٤٦.

(٥) التطور اللغوي التاريخي/ ص٤٠ -٤١، وينظر: دلالة الألفاظ/ ص١٢٣، والترادف في اللغة/ ص٨، و١٩.

(٦) مباحث لغوية/ ص٩٢، وينظر: دلالة الألفاظ العربية وتطورها/ ص١٤.

(٧) ينظر: لغتنا الجميلة/ ص١٠٠ -١٠٢.

(٨) ينظر: علم اللغة، لوافي/ ص٢٩٢، وعوامل التطور اللغوي/ ص١١٩ -١٢٠، وعلم اللغة، للضامن/ ص٩٠ -٩١.

(٩) ينظر: المرجع نفسه/ ص٢٩٢ -٢٩٣، والتطور الدلالي/ ص٥٣.

(١٠) ينظر: المرجع السابق/ ص٩٠ -٩٢.

(١١) أثر القرآن الكريم في اللغة العربية/ ص٩٦، وينظر: أبحاث ومقالات في اللغة/ ص١٤١.

(١٢) ينظر: الصاحبي/ ص١٥، و٤٤ وما بعدها، والمزهر (١/ ٢٩٤)، وتاريخ آداب العرب (١/ ٢٠٨ -٢٠٩)، ودلالة الألفاظ/ ص١٧، والتفكير اللساني في الحضارة العربية/ ص١٨٧، وعلم الدلالة، دراسة وتطبيقاً/ ص٥٥، وتاريخ علوم اللغة العربية/ ص٤١ -٤٢، وأثر القرآن الكريم في اللغة العربية/ ص٦٠ -٦١، والتطور الدلالي/ الصفحات: ٢٢ -٢٣، و١٧٩ -١٩٠، و٢١١ -٢٨٩، و٣٢٩- ٣٥٩، و٤٩٤ -٤٩٧، و٥٢٢ -٥٤٢.

(١٣) ينظر: التطور الدلالي/ ص٢٥٣.

(١٤) ينظر: الصاحبي/ ص١٥، والمزهر (١/ ٢٩٥)، وعلم اللغة، لوافي/ ص٢٩٢، والعربية وعلم اللغة الحديث/ ص٣٧، والترادف في اللغة/ ص٢٢٤، والتطور الدلالي/ ص١٨١ -١٨٣.

(١٥) ينظر: الصاحبي/ ص١٥، والموسوعة الفقهية (٢/ ٨١٥٦)، وعلم اللغة، لوافي/ ص٢٩٢، والعربية وعلم اللغة الحديث/ ص٣٦، وبحوث في المعجمية العربية/ ص٢١١.

(١٦) التطور الدلالي/ ص٢١٣.

(١٧) ينظر: المفردات (٢/ ٢)، وعلم اللغة، لوافي/ ص٢٩٢، والتطور الدلالي/ ص٢١٩، والتعريفات (١/ ٤٤)، والموسوعة الفقهية (٢/ ٩٩٠٤)، وبحوث في المعجمية العربية/ ص٢١١.

(١٨) ينظر: إصلاح المنطق/ ص٣٧٢، والبيان والتبيين/ ص٤٣٥، والمستقصى في أمثال العرب (١/ ١١٠).

(١٩) ينظر: الصاحبي/ ص١٥، والمفردات (١/ ٢١١)، والموسوعة الفقهية (٢/ ٥٨٠٨)، والعربية وعلم اللغة الحديث/ ص٣٧، والتطور الدلالي/ ص٢٢٧ -٢٣١.

(٢٠) ينظر: الموسوعة الفقهية (٢/ ٥٠٩٨)، والتطور الدلالي/ ص١٨٧.

(٢١) التطور الدلالي/ ص١٨٩ -١٩٢، وينظر: الصاحبي/ ص١٥، والموسوعة الفقهية (٢/ ٨٠٤٤).

(٢٢) العربية وعلم اللغة الحديث/ ص٣٦- ٣٧.

(٢٣) وسيأتي بعد صفحات بيان ما أعنيه بـ«الجديد في نفسه»، و«الجديد في دلالته معناه».

(٢٤) ينظر: التطور الدلالي/ ص٣٢٩ وما بعدها، والمعجم القرآني/ ص٩٤ -١٠٩.

(٢٥) ينظر: دلالة الألفاظ/ ص١٥٨، وعلم اللغة -مقدمة للقارئ العربي/ ص٢٨٢-٢٨٣.

(٢٦) ينظر: دلالة الألفاظ/ ص١٢٦، و١٥٦-١٥٧، وعلم اللغة -مقدمة للقارئ العربي/ ص٢٨٢.

(٢٧) ينظر: المستدرك/ كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم (باب ذكر زينب بنت جحش رضي الله عنها)، رقم: (٦٨٦٩) (١٦/ ٢٣)، وكنز العمال/ حرف الزاي -كتاب الزكاة من قسم الأقوال (الباب الثاني: في السخاء والصدقة -الفصل الأول: في الترغيب فيها)، رقم: (١٥٩٥٢) (٦/ ٣٤٢).

(٢٨) ينظر: دلالة الألفاظ/ ص١٥٧.

(٢٩) صحيح مسلم/ كتاب الجهاد والسير (باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر)، رقم: (٤٦٨٧) (٥/ ١٥٦)، وسنن التِّرمذي/ كتاب تفسير القرآن (باب تفسير سورة الأنفال)، رقم: (٣٠٨١) (٥/ ٢٦٩)، ومسند الإمام أحمد/ مسند العشرة المبشرين بالجنة (مسند عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه)، رقم: (٢٠٨) (١/ ٣٠).

(٣٠) ينظر: علم الدلالة -دراسة وتطبيقاً/ ص٥٧، وعلم اللغة -مقدمة للقارئ العربي/ ص٢٨١.

(٣١) ينظر: المرجع نفسه/ ص٢٣٩، والدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم/ ص١٠٧ -١١٩.

(٣٢) ينظر: دلالة الألفاظ/ ص١٥٥، وعلم اللغة -مقدمة للقارئ العربي/ ص٢٨٤.

(٣٣) ينظر: المرجع نفسه/ ص١٥٥، والمشترك اللفظي في الحقل القرآني/ ص١١، وفقه اللغة، للمبارك/ ص١٠١ -١٠٢، والترادف في اللغة/ ص٢٢٤.

(٣٤) ينظر: المزهر (١/ ٣٣٣ -٣٣٧)، والبحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني/ ص٥٢-٦١.

(٣٥) البحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني/ ص٣٩.

(٣٦) ينظر: دلالة الألفاظ/ ص١٥٥، وعلم اللغة -مقدمة للقارئ العربي/ ص٢٨٣-٢٨٤، وعوامل التطور اللغوي/ ص١٢٥، وعلم الدلالة -دراسة وتطبيقاً/ ص٥٧.

(٣٧) ينظر: علم الدلالة، لعمر/ ص٢٤٥-٢٤٦، ودور الكلمة في اللغة/ ص١٨٠، ودلالة الألفاظ/ ص١٥٢، وعلم اللغة -مقدمة للقارئ العربي/ ص٣٠٨ -٣٠٩، وعلم اللغة، لوافي/ ص٣١٩، وعلم الدلالة والمعجم العربي/ ص٦٥.

(٣٨) ينظر: نزهة الأعين النواظر/ ص٥٢٦-٥٢٧.

(٣٩) المعنى اللغوي وعناصر تحديده في ضوء الدَّرس اللغوي الحديث/ ص١٣٢، وينظر: أسباب التعدد في التحليل النحوي/ ص٣٣، والدلالة المركزية والدلالة الهامشية/ ص٤٥ -٤٦، و١١٥.

(٤٠) ينظر: اللغة العربية -معناها ومبناها/ ص٣٣٧، و٣٥١ -٣٥٢، ودلالة الألفاظ/ ص١٥٢، و٢١٣، وعلم الدلالة، لعمر/

ص٢٤٦، وعلم الدلالة والمعجم العربي/ ص٦٥، والنحو والدلالة/ ص١١٤-١١٥.

(٤١) ينظر: المزهر (١/ ٣٣٢-٣٣٣)، والبحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني/ ص٣٩-٥١.

(٤٢) البحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني/ ص٦٢.

(٤٣) ينظر: الترادف في اللغة/ ص٢٤، ودور الكلمة في اللغة/ ص١٨٣، والبحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني/ ص٦٤.

(٤٤) ينظر: علم اللغة، لوافي/ ص٢٨٩-٢٩٣، وعلم الدلالة -دراسة وتطبيقاً/ ص٥٨-٥٩، والبحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني/ ص٧٩.

(٤٥) ينظر: دلالة الألفاظ/ ص١٧٤.

(٤٦) أثر القرآن الكريم في اللغة العربية/ ص٦٦.

(٤٧) ينظر: التطور الدلالي/ ص٣٢٩ وما بعدها، والمعجم القرآني/ ص٩٤-١٠٩.

(٤٨) المزهر (١/ ٣٠١)، وينظر: تاريخ علوم اللغة العربية/ ص٤٢.

(٤٩) ينظر: التطور الدلالي/ ص٢٣-٢٤، وأثر القرآن الكريم في اللغة العربية/ ص١٢٩-١٣٠، وتنظر على سبيل المثال: مادة «ت ف ث» في تاج العروس (١/ ١٢١٩).

(٥٠) الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم/ ص٤٠٨.

(٥١) ينظر: الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم (المقدمة)، ص١.

(٥٢) مجاز القرآن، للصغير/ ص٨٥.

(٥٣) ينظر: علم الدلالة -أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص٣١٦-٣١٨، ودلالة الألفاظ/ ص١٤٨-١٥٥، واللسانيات وأسسها المعرفية/ ص٩٦-٩٧، وعلم اللغة -مقدمة للقارئ العربي/ ص٣٨٨-٤٠١، والتفسير البياني للتراكيب القرآنية ذوات الدلالات الاحتمالية/ ص١٣٠.

(٥٤) ينظر: علم الدلالة -أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص٣١٨.

(٥٥) ينظر: الترادف في اللغة/ ص١٠٠، ومجاز القرآن، للصغير/ ص٥٩، والألفاظ المعبرة عن الكلام في التعبير القرآني/ ص١٥.

(٥٦) الخصائص (٢/ ٤٤٢)، وينظر: المثل السائر (١/ ٣٥٢)، والتكوينات النحوية للمجاز المرسل/ ص٣٧، علم الدلالة-دراسة وتطبيقاً/ ص٦٧، وعلم الدلالة-أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص١٨٣.

(٥٧) ينظر: علم الدلالة -دراسة وتطبيقاً/ ص٦٧.

(٥٨) ينظر: المزهر (١/ ٢٨٣).

(٥٩) علم الدلالة -أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص٣٢٧، وينظر: التعبير القرآني والدلالة النفسية/ ص٣٦١.

(٦٠) ينظر: الصاحبي/ ص٤٤ وما بعدها، والمفردات (٢/ ٤٤٩)، والمزهر (١/ ٢٩٤)، وتاريخ آداب العرب (١/ ٢٠٨-٢٠٩)، ودلالة الألفاظ/ ص١٧، والتفكير اللساني في الحضارة العربية/ ص١٨٧، وعلم الدلالة -دراسة وتطبيقاً/ ص٥٥، وتاريخ علوم اللغة العربية/ ص٤١-٤٢، وأثر القرآن الكريم في اللغة

العربية/ ص٦٠ -٦١، والتطور الدلالي/ الصفحات: ٢٢ -٢٣، و١٧٩ -١٩٠، و٢١١ -٢٨٩، و٣٢٩ -٣٥٩، و٤٩٤-٤٩٧، و٥٢٢ -٥٤٢.

(٦١) ينظر: تاريخ العربية/ ص٦٥.

(٦٢) تاريخ علوم اللغة العربية/ ص٤١ -٤٢.

(٦٣) فقه اللغة، لوافي/ ص١١٩.

(٦٤) علم الدلالة، لجيرو/ ص٩٩، وينظر: علم الدلالة -أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص٩٠ -٩٢.

(٦٥) الخصائص (٢/ ٤٤٧)، وينظر: دلالة الألفاظ/ ص١٣٠ -١٣١.

(٦٦) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني/ ص١٥٢.

(٦٧) ينظر: فقه اللغة، لوافي/ ص١٣ -١٤، وخصائص الحروف العربية ومعانيها/ ص٢٧٤ -٢٧٦، وأصوات الحروف العربية وإيحاءاتها الحسية والشعورية/ ص٤١، والتعبير القرآني والدلالة النفسية/ ص٣٦١.

(٦٨) المنهج القرآني وصياغة المُصطلحات/ ص٤٧.

(٦٩) إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[سورة الاعراف: ١٥٦].

(٧٠)المنهج القرآني وصياغة المُصطلحات/ ص٧٢ -٧٨.

(٧١) المرجع نفسه/ ص٥٤ -٥٦.

(٧٢) المرجع السابق/ ص٧٨ -٨٤.

(٧٣) الترادف في اللغة/ ص١١، وينظر: لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة/ ص٢٧٩.

(٧٤) أثر القرآن الكريم في اللغة العربية/ ص٩٦، وينظر: بحوث في المعجمية العربية/ ص٢١١، والمعجم القرآني/ ص١٠٢ -١٠٣.

(٧٥) ينظر: علم الدلالة-دراسة وتطبيقاً/ ص٦٣.

(٧٦) علم الدلالة -دراسة وتطبيقاً/ ص٩٣، وينظر: في معرفة النص/ ص١٤٣، وبنية الخطاب الشعري/ ص٤٦.

(٧٧) ينظر: علم الدلالة -دراسة وتطبيقاً/ ص٩٣ -٩٤.

(٧٨) المفردات (٢/ ٢٤).

(٧٩) المصدر نفسه (٢/ ٢٤)، والبحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني/ ص٥٧.

(٨٠) ينظر: الموسوعة الفقهية (٢٤/ ١٦٦).

(٨١) ينظر: البحث الدلالي عند الأصوليين/ ص٥٧ -٥٨.

(٨٢) ينظر: المفردات (٢/ ٥٠١)، ولسان العرب (١٥/ ٣٨٣)، وعمدة الحفاظ (٤/ ٢٩٦).

(٨٣) المصدر نفسه (٢/ ٥٠١).

(٨٤) ينظر: المصدر السابق (٢/ ٥٠١)، والبحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني/ ص٦٩ -٧٠.

(٨٥) ينظر: الموسوعة الشعرية.

(٨٦) ينظر: تهذيب اللغة (٤/ ٤٧٢)، والمفردات (١/ ٥١٩)، ولسان العرب (٣/ ٤٥٦).

(٨٧) المزهر (١/ ٣٣٣)، وينظر: المشترك اللغوي -نظرية وتطبيقاً/ ص٧٨، والتطور

الدلالي/ ص٣٣٤.

(٨٨) المفردات (١/ ٢١٦).

(٨٩) اللسان (٣/ ١٤٠).

(٩٠) البصر في الآية الكريمة بمعنى: قوَّة القلب المُدرِكة، لا البصر بالعين.

(٩١) المفردات (١/ ٢١٦).

(٩٢) ينظر: البحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني/ ص٥٨ -٥٩.

(٩٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٩).

(٩٤) ينظر: المفردات (١/ ١١٢)، ولسان العرب (٢/ ١٣٤)، وعمدة الحفاظ (١/ ٣٨٦-٣٨٧)، وتاج العروس (١/ ١٢٣٨).

(٩٥) ينظر: إرشاد العقل السليم (١/ ١٣).

(٩٦) ينظر: تهذيب اللغة (٥/ ١٢٢)، والصحاح (١/ ٢٣٤)، ومقاييس اللغة (٢/ ٣٨١-٣٨٤)، والمفردات (١/ ١٨٤)، ولسان العرب (١/ ٣٩٩ -٤٠٧).

(٩٧) ينظر: التطور الدلالي/ ص١٢٢ -١٢٣.

(٩٨) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل/ ص١٢٦، والمفردات (١/ ٤٩١).

(٩٩) لسان العرب (٧/ ٣٢٠)، وينظر: الاشتقاق/ ص١١١، و٢٢٦، والبحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني/ ص٦٦.

(١٠٠) الشعر والشعراء/ ص٥٨.

(١٠١) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي/ ص٣٧٨، واللسانيات وأسسها المعرفية/ ص٩٧، وعلم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص٩٥، ودراسات في القرآن/ ص٣١.

(١٠٢) ينظر: أسرار البلاغة/ ص٣٠، ودلالة الألفاظ/ ص١٧٥.

أهم المصادر والمراجع

بالنظر لطول القائمة واحتوائها على تفصيلات لاحاجة للباحث اليها قامت هيئة التحرير بتجريد المهم منها.

- أثر القرآن الكريم في اللُّغة العربية: أحمد حسن الباقوري/ دار المعارف (القاهرة)، ط١، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، الشهير بـ«تفسير أبي السُّعُود»: دار الكتب العلمية (بيروت)، ط٣، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية: مُصطفى صادق الرَّافعي، مُراجعة وضبط: محمد سعيد العريان/ المكتبة التجارية الكبرى بمصر (القاهرة)، ط٨، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.
- الإعجاز اللُّغوي والبياني في القرآن الكريم: علي بن نايف الشُّحُود/ موقع المكتبة الشاملة على شبكة الإنترنت، (ب. ت).
- الألفاظ المُعبِّرة عن الكلام في التعبير القرآني «رسالة ماجستير»: نبراس حسين مهاوش العزاوي، إشراف:

د. حسن منديل العكيلي/ جامعة بغداد-كلِّيَّة التربية للبنات (قسم اللغة العربية)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

- البحث الدَّلالي عند الأُصُوليين: د. محمد يوسف حبلص/ مكتبة عالم الكتب (بيروت)، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- بُحُوث منهجية في عُلُوم القرآن الكريم: مُوسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمَّار (عمَّان)، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- تاريخ عُلُوم اللُّغة العربية: طه بن صالح الفضيل الراوي/ مطبعة الرشيد (بغداد)، ط١، ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م.
- التَّرادف في اللُّغة «أصله رسالة ماجستير»: حاكم مالك لعيبي الزَّيَّادي، دار الحرية للطباعة (بغداد)، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- التَّطوُّر الدَّلالي بين لُغة الشعر الجاهلي ولُغة القرآن الكريم -دراسة دلالية مُقارنة: عودة خليل أبو عودة/ مكتبة المنار (الزرقاء)، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- التَّطوُّر اللُّغوي التَّاريخي: أ. د. إبراهيم السَّامرائي/ دار الأندلس (بيروت)، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- التَّطوُّر اللُّغوي -مظاهره، وعلله، وقوانينه: أ. د. رمضان عبد التَّوَّاب/ مكتبة الخانجي (القاهرة)، ودار الرفاعي (الرِّياض)، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.
- التَّعبير القرآني والدَّلالة النفسية: عبد الله محمد طلب الجيوسي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية (دمشق)، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- التَّعريفات: أبو الحسن علي بن محمد بن علي، الحُسيني، الحنفي، المعروف بـ«الشَّريف الجُرجاني» (ت٨١٦هـ)، دار الكتاب العربي (بيروت)، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- التفكير اللِّساني في الحضارة العربية: د. عبد السَّلام المَسَدِّي/ الدار العربية للكتاب (تونس)، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٦م.
- خصائص الحُرُوف العربية ومعانيها:

د. حسن عباس/ موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت، مكتبة الأسد (دمشق)، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

- دراسات في القرآن الكريم: د. السَّيِّد أحمد خليل/ دار النهضة العربية (القاهرة)، ١٩٦٨م.
- دُرَّة التنزيل وغرَّة التأويل: الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ)، دار الآفاق الجديدة (بيروت)، ط١، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- دلالة الألفاظ العربية وتطوُّرها: د. مُراد كامل/ مكتبة نهضة مصر (القاهرة)، ط١، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
- شُعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحُسين بن علي بن مُوسى البيهقي، الشَّافعي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد سعيد بسيوني زغلول/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- الصُّورة الفنِّيَّة في المثل القرآني -دراسة نقدية بلاغية: أ. د. محمد حسين علي الصَّغير/ دار الرشيد (بغداد)، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- العربية الفُصحى ولهجاتها: د. حسام البهنساوي/ مكتبة الثقافة الدِّينية (القاهرة)، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- العربية وعلم اللُّغة الحديث: د. محمد محمد داود/ جامعة قناة السُّويس- كلِّيَّة التربية/ دار غريب (القاهرة)، ٢٠٠١م.
- علم الدَّلالة: أ. د. أحمد مُختار عبد الحميد عُمر (ت١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م)، مكتبة دار العروبة (الكويت)، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- علم الدَّلالة: المُستشرق الفرنسي پيير جيرو/ ترجمة: د. منذر عيَّاشي، وأنطوان أبو زيد/ دار طلاس للدراسات (دمشق)، ط١/ ١٩٨١م.
- علم الدَّلالة -دراسة وتطبيقاً: د. نور الهُدى لوشن/ منشورات جامعة قار يونس (بنغازي -ليبيا)، ط١/ ١٩٩٥م.
- علم الدَّلالة والمُعجم العربي: د. عبد القادر أبو شريفة، د. حسين لافي، د. داود غطاشة/ دار الفكر (عمَّان)،

ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- علم اللُّغـــة: أ. د. حاتم صالح الضامن/ كلِّيَّة الآداب -جامعة بغداد (قسم اللغة العربية)، ١٩٨٩م.
- علم اللُّغـة: أ. د. علي عبد الواحد وافي/ دار نهضة مصر (القـاهرة)، ط٧، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
- علم اللُّغة -مُقدِّمة للقارئ العربي: د. محمود السَّعران/ دار النهضة العربية (بيروت)، (ب. ت).
- عوامل التَّطوُّر اللُّغوي «دراسة في نُمُوِّ الثَّروة اللُّغوية وتطوُّرهـا»: د. أحمد عبد الرَّحمن حمَّاد/ دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت)، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- فقه اللُّغة: أ. د. عبد الحسين المُبارك/ مطبعـة جامعـــة البصرة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- فقه اللُّغة: أ. د. علي عبد الواحد وافي/ دار نهضة مصر (القاهرة)، ط٧، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- في فقه اللُّغة وقضايا العربية: أ. د. سميح أبو مغلي/ دار مجـــدلاوي (عمَّان)، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- في معرفة النَّصِّ: يُمنى العيـــد/ منشورات دار الآفـــاق الجديدة (بيروت)، ط٣، ١٩٨٥م.
- قواعد التَّدبُّر الأمثل لكتاب الله عز وجل: تأمُّلات الشيخ عبد الرَّحمن حسن حبنكـــة الميداني الدِّمشقي (ت١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م)، دار القلم (دمشق)، والدار الشامية (بيروت)، ط٤، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- كلام العرب -من قضايا العربيـــة: د. حسن ظاظا/ دار النهضة العربية (بيروت)، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
- لحن العامَّة والتَّطوُّر اللغوي: أ. د. رمضان عبد التَّوَّاب/ دار المعارف (القاهرة)، ط١/ ١٩٦٧م.
- اللِّسانيات وأُسُسهـــا المعرفية: د. عبد السَّلام المَسَدِّي/ الدار العربية للكتاب (طرابلس)، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- اللُّغـة: الأستاذ جوزيف فندريس/ تعريب: د. محمد القصَّاص، وعبد الحميد الدواخلي/ مطبعة لجنة البيان

العربي (القاهرة)، ١٩٥٠م.
- اللُّغة العربيـــة -معناها ومبناها: أ. د. تمّام حسّان/ الهيئة المصرية العامَّة للكتاب (القـــــاهرة)، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- لُغة القرآن: عبد الجليل عبد الرَّحيم/ مكتبة الرِّسالـــة (بيروت)، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- اللُّغة والمُجتمع: أ. د. علي عبد الواحد وافي/ دار نهضة مصر للطبع والنشر (القاهرة)، ط١، ١٩٤٦م.
- لُغتنا والحياة: أ. د. عائشـــة عبد الرَّحمن، «بنت الشَّاطئ»، دار المعارف (القاهرة)، ١٩٧١م.
- مباحث لُغويـــــة: أ. د. إبراهيم السَّامرائي/ مطبعة الآداب (النجف)، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.
- المثل السَّائر في أدب الكاتب والشَّاعر: أبو الفتح ضياء الدِّين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: محمـــد مُحيي الدِّين عبد الحميد/ المكتبة العصرية (بيروت)، ١٩٩٥م.
- مجاز القرآن: الحافظ أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثنَّى (ت٢٠٩هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م.
- مجـــاز القرآن -خصائصـــه الفنِّيَّة وبلاغته العربية: أ. د. محمد حسين علي الصَّغير/ دار الشؤون الثقافيـــة (بغداد)، ط١، ١٩٩٤م.
- المجـــاز وأثره في الدَّرس اللُّغوي: د. محمـــد بدري عبد الجليل/ دار الجامعات المصريـــة (الإسكندرية)، ١٩٧٥م.
- المدخل إلى علم اللُّغة: أ. د. رمضان عبد التَّوَّاب/ مكتبـــــة الخانجي (القاهرة)، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم: أ. د. محمد أبو شُهبة، دار الجيل (بيروت)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- المُزهر في عُلُوم اللُّغة وأنواعها: جلال الدِّين السُّيوطي، (ت٩١١هـ)، شرحه وضبطه: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل أبراهيم، وعلي محمـــد البجاوي/ المكتبة العصرية (بيروت)، ١٩٨٦م.

- المُستَقصَى في أمثال العرب: جار الله الزَّمَخْشَري، (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- المُشترك اللُّغوي -نظريةً وتطبيقاً: أ. د. توفيق محمد شاهين/ مكتبة وهبة (القاهرة)، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- المُشترك اللَّفظي في الحقل القرآني: أ. د. عبد العال سالم مكرَّم/ مؤسَّسة الرِّسالة (بيروت)، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- المُعجم القرآني -دراسة مُعجمية لأُصُول ألفاظ القرآن الكريم «أطروحة دكتوراه»: حيدر علي نعمة/ إشراف: أ. م. د. محمد يحيى سالم الجبوري/ الجامعة العراقية (كلية الآداب -قسم عُلُوم القرآن)، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.